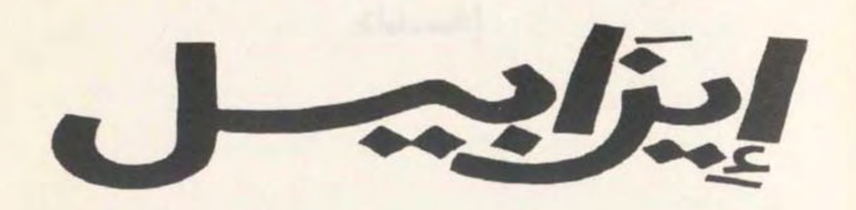

روايات جائزة نوبل
17
أندريه جيد
إيزابيل
7.8.2017
فتحي العشري
تقديم
وترجمة
الدار المصرية اللبنانية



Isablle

روايــة

أندريه جيد

تقديم وترجمة

فتحي العشري

روايات جائزة نوبل

17

جيد ، أندريه .

إيزابيل Isablle : رواية أندريه جيد ؛ تقديم وترجمة فتحي العشري

.ـ ط1.ـ القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009 .

160 ص ؛ 21 سم

تدمك : x ـ 489 ـ 427 ـ 977

1 ـ القصص الفرنسية .

أ ـ العشري ، فتحي (مترجم ومقدم) .

ب ـ العنوان .   843

رقم الإيداع : 9447 / 2009

الدار المصرية اللبنانية

رئيس مجلس الإدارة : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحي العشري

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + – ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

الطبعة الأولى : شوال 1430هـ – سبتمبر 2009م .

إهـــداء

الحكم الدولي لكرة القدم رجال

ومـلكة جـمال العـرب المثاليـة ..

شيماء منصور

نموذجًا رائعًا للفتاة المصرية

فتحي العشري

تصدير

توقفنا فترة ؛ لنراجع مشروعنا الطموح « سلسلة روايات جائزة نوبل» ، فتسرب المشروع إلى جهات كثيرة في الداخل والخارج .. ومع هذا يظل مشروعنا هو الرائد وهو الأفضل ؛ لأننا نختار ، ونحسن الاختيار .. نختار أبرز وأشهر الفائزين بالجائزة ، ونختار أبرز وأشهر وأعظم روايات هؤلاء الفائزين بالجائزة ، ونختار أكثر المترجمين دقة ومهارة وتميزًا .. ولأننا نترجم عن اللغات الأصلية .. ولأننا لا نكتفي بالترجمة ، ولكننا نضيف المقدمات الوافية عن المؤلفين والروايات والمترجمين أيضًا .. ولأننا نعهد إلى الناقد المتميز «فتحي العشري» بالإشراف الكامل على السلسلة ، ونعهد إلى الفنان المتألق «محمد حجي» بتصميم الأغلفة والبورتريهات ، ونعهد إلى العاملين بإدارة النشر بالتحرير والمراجعة والتصحيح ؛ حتى تصدر كتب السلسلة في شكل متقن ودقيق .. ولأننا ننشر الكتب في أجمل قطع وأبهى شكل.

والأمل ، كل الأمل ، ألا نتوقَّف مرة أخرى ، حتى نستكمل مشروعنا الطموح «سلسلة روايات جائزة نوبل» ، الذي كسب ثقة جمهور قراء «الدار المصرية اللبنانية» ..

والله الموفق ،

محمد رشاد

رئيس مجلس الإدارة

مُقَدِّمَة

أندريه جيد ... الأخلاقي

أندريه جيد هو الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام 1947م ، مضيفًا للفرنسيين جائزة جديدة من هذه الجوائز العالمية الفريدة ..

ولد أندريه جيد في الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1865م . في العاصمة الفرنسية عن أب وصل إلى كرسي القانون بكلية باريس ، وأم من أسرة ثرية .. كان الأب بول والأم جوليت رونورد من صفوة المجتمع بحيث وجد أندريه نفسه ،وهو بعد في شبابه ، يجلس بين الوزراء ورجال الدين .. أما تعليمه فقد تلقاه على أعلى مستوى ، بداية من المدرسة الإلزامية الداخلية التي أبعدته عن أسرته فترة مرض فيها .. فلما توفي والده – عام 1880م ، وكان أندريه في الخامسة عشرة.. أصيبت الأم بحالة عصبية ، ثم انتقلت إلى مونبلييه مع ابنها إلى جانب عمه رجل القانون والدراسات السياسية ، ولكن في شقة ضيقة بعيدة عن مظاهر الثراء الأولى ولا ندري لماذا ..

ومع هذا فرضت الأم البروتستانتية المتشددة رقابة مشددة على ابنها ، ولم تنس أنها نورماندية بورجوازية حتى بعد رحيل الأب وتراجع مستوى الأسرة الاقتصادي .. لم تكن الأم هي المرأة الوحيدة

في شباب أندريه ، فقد قامت على رعايته نساء أخريات منهن خالته ماتيلدا التي أقام معها عام 1882م ، وعايش ابنتها مادلين التي أثرت فيه كثيرًا لدرجة أنها أصبحت بطلة لإحدى رواياته ، وهي « اللا أخلاقي » التي كتبها عام 1902م .

أفاد أندريه في هذه المرحلة من العزلة بزيادة القراءة والتأمل من ناحية، وبنزعة التمرد والثورة التي ظهرت في كل كتاباته من ناحية أخرى..

وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الأول « كراسات أندريه فالتر » ، وهو بَعْدُ في الثامنة عشرة من عمره .. ويلاحظ أنه لم يعلن عن اسمه صراحة ؛ فاستعار اسمًا آخر ، والواقع أنها مذكرات أكثر منها أي شيء آخر ... ولم يكن هذا بسبب الكبت والتزمت وحدهما ، ولكنَّه كان أيضًا نتيجة لتعرفه على « مالارميه » و«هويسمان» و« مانيرلنك » ..

ووصل تمرد أندريه جيد إلى حد مهاجمة فكرة الأسرة ، وخطأ الرجل في الارتباط بامرأة ، وأنه لا توجد أسرة مثالية .. ودوّن تلك الأفكار الغريبة على المجتمع في « بحث نِرسيس » ، والكلمة كما هو معروف تعني « النرجسية » أو حب الذات .. وهو ما كشف عن مسعى جيد الدائم للحرية ، فهو يستهدف تحرير نفسه وتحرير الإنسان بشكل عام ..

في هذه الفترة وهو بعيد عن أمه كتب لها رسائل، يعبر فيها عن حبه لها رغم ضيقه من تشددها ؛ لأنه لم ينس أنها هي التي شجعته على القراءة ، وأنها الإنسان الوحيد الذي يأنس إليه ويستكين معه .. حتى

أن « كراسات أندريه فالتر » جاءت إلهامًا من أمه فضلًا عن التأثر بالأفكار القادمة من ألمانيا وبريطانيا ..

فالفيلسوف نيتشه كان قد أطلق فلسفته الهتلرية في فكرة « الإنسان الخارق » ، وفي المقابل انطلقت على يد أوسكار وايلد الدعوة للإيمان بجمال الحياة والفن .. وانحاز جيد لوايلد ، ولكنه آثر أن يستطلع آراء أخرى ، فقرأ ديستويفسكي وباريس وطالع تاريخ اليونان والرومان، والتهم عددًا من اللغات ومنها اللغة العربية .

ولعل الأفكار المتعارضة سواء القادمة من الخارج ، أو تلك التي نادى بها ، واعتنقها مفكرو فرنسا ، هي التي جعلت من جيد هو الآخر طائرًا بجناحين ، وخاصة في شبابه ، فهو المغامر ، وهو العاقل في الوقت نفسه ، وهو الذي يسعى للمتعة الذاتية ، وهو الذي يقدم على التضحية . . هو الذاتي وهو الغيري في الوقت ذاته ..

من هنا تأثرت أعماله فكتب « الأطعمة الأرضية » و « الشاذ » و« الباب الضيق » و« السيمفونية الريفية » و« المزيفون » .. وهي أعمال تظهر هذا التناقض واستهتار ميشيل في « الشاذ » والتزام « اليساد » في « الباب الضيق » و « الخارج على القانون » لافاكاديو ، ورجل الدين المتمسك بدينه والمتمسك بقيمه ..

لكن عام 1895م عصف بجيد فقد ماتت أمه ، ووجد نفسه وحيدًا مكتئبًا ، وكانت أصداء جوته بشعره وعبقريته تتردد في كل كيانه .. عندئذٍ فكر في الارتباط بصديقة الصبا والأحلام « مادلين » ابنة خالته، وكأنه يبحث دائمًا عن أمه في أقرب الناس إليها ..

و« مادلين » فتاة رقيقة أثرت على جيد بقوة حتى إنها أصبحت الشخصية المحورية في إحدى رواياته ، وهي « اللا أخلاقي » ، بل في أعمال أخرى أيضًا .. وعلى الرغم من أن مادلين كانت تكبره بثلاث سنوات ، إلا أنه كان يرعاها ويحتضنها ، حتى وهي تبدي نضجًا وتعقلًا وحكمة وجدية .. تحولت الصداقة إذن إلى زواج ، وسافر معها إلى شمال إفريقيا وإيطاليا وسويسرا ، وهي الرحلة التي كتب عنها في رواية « اللا أخلاقي » التي تقترب كثيرًا من شكل المذكرات أو هي كذلك ..

لم يهجر جيد فكرة المذكرات والاعترافات في أعماله ، فسجل مراسلاته مع بول فاليري في « إذا كانت البذرة لا تموت » ، ومع بول كلوديل في « اليوميات » ..

لكن المذكرات الأهم جاءت في كتاب بدأه عام 1889م ، وانتهى منه عام 1947م .. وقد أفضى في آخره عن خلاصة تجربته الحياتية والأدبية إذ قال : « أقمت مدينتي التي سيسكنها فكري من بعدي مخلدًا إلى الأبد وأنا أشعر بالرضى ؛ لأني أطرق باب الموت وحدي بعد أن استمتعت بخيرات الدنيا وشعرت بأنني سأكون سببًا في إسعاد الناس الذين سيكونون من بعدي أسعد حالًا وأكثر حرية وأفضل وضعًا ... لقد قمت بعملي من أجل خير الأجيال البشرية القادمة . ولقد عشت حياتي ..» .

ولعل أهم أعمال جيد بعد ذلك تتمثل في «بحث نِرسيس» عام 1892م ورحلة عام 1907م و« الباب الضيق » عام 1909م و « إيزابيل» عام 1911م ..

ورغم كل هذه الأعمال لم ينتشر اسم جيد ولم تتحقق شهرته ، ولم ينل تقديره ، ولم يحظَ بمجده إلا بعد أن قدّم المسرح الفرنسي معالجة درامية لإحدى رواياته ..

فقد قال عنه الناقد الفرنسي « بنيامين كريميو » إنه رغم شخصيته المضطربة المعقدة المتناقضة القلقة ، إلا أنه شخصية نادرة وصورة ثرية لفنه الثري .

ويقول د. نظمي لوقا : إن قراءة ديستويفسكي وفرويد قد أكسبت جيد قدرة على أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التي تكبتها التربية في أعمق أغوارنا ، فإن لم تجد متنفسًا لها سممت منابع الحكم العقلي ؛ وهكذا تتحوّل الأخلاقيات الظاهرة إلى نفاق ورياء ؛ ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ولو أدى ذلك إلى الفضيحة . ويعتقد أنه ربما ظهرت في هذا الإطار الصريح شعلة العبقرية .. هو إذن ضد الانقياد للأخلاقيات الشائعة ، بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقيادًا أعمى ، ولكنه مع هذا احتفظ في تكوينه النفسي بتيار متدين ، وهذا هو السر في أن معظم أعماله يستشهد فيها بالإنجيل .

اسمعه وهو يقول : « كم أتمنى أن أقمع شهواتي بالعمل المضني».. وقد قيل عنه إنه يتمتع بعاطفة دينية دفينة رغم أفكاره التحررية ، فهو يذكر الله والآخرة بطريقة المتصوف الزاهد ، الذي يدرك أن نهاية المطاف تفضي إلى لقاء الله ؛ فهو الوحيد في كل مكان .

فإذا تناولنا رواية مثل « اللا أخلاقي »، وجدنا أن جيد هو نفسه ميشيل في علاقته بالحياة والناس وأمه . أما والده فلم يذكره كثيرًا، بينما تحدث عن إفريقيا طويلًا نتيجة لزيارته لها، مُرَكِّزًا على الجزائر وتونس، وخاصة مدينة سوسة التي عاش فيها الوقت الأكبر من رحلته الإفريقية ، فهو يرى أن إفريقيا تحمل في داخلها جاذبية غريبة على حد تعبيره .

أسمعه وهو يقول عن إفريقيا : « إنني في إفريقيا أسمع وأرى وأتنفس مثلما لا أفعل في أيِّ مكان ، وحينما تتسلل عطورها وألوانها وعبقها في داخلي فإنني أحس بقلبي يفرح وينتحب من العرفان الجميل .. خذوني إلى داخل هذه الأرض كي أصبح وأنا أحس بضيائها ، وياله من ضياء مشع ! » .

أما إذا تناولنا هذه الرواية « إيزابيل » ، فسنجد أنه يعترض على تحرر البطلة الزائد والرغبة في التخلص من القيود، بأي طريقة وبأي ثمن .. مما يؤكد أن هذا الاعتراض لا يتعارض مع رفضه للتزمت والقهر ، وهما ما تعاني منه المرأة أكثر من الرجل في كل المجتمعات حتى المتقدمة منها .

وتقديرًا لإحساسه بالناس ومحاولة تمهيد طريق الهداية والقناعة والرضى والإيمان أمامهم ، مُنح جائزة نوبل العالمية في الآداب عام 1947م.

ورحل جيد في عام 1951م عن 86 عاما ، لم يحس في أواخرها قطُّ أنه كهل أصابه الوهن ودهمته الشيخوخة ، فقد ظل يكتب ويبدع بعد بلوغه الثمانين من عمره ، ولم يكف إلا بعد أن أصابه المرض في السنوات الثلاث الأخيرة من عمره .

شخصيات الرواية

Gerard Lacase	جيرار لاكاز
Benjamin Floche	بنيامين فلوش
Mme Floche	مدام فلوش
Saint - Aureol	سان – أوريول
Mme de Saint - Aureol	مدام دي سان – أوريول
L Abbe Santal	لابيه سانتال
Isabelle	إيزابيل
Casimir	كازيمير
Mlle Verdure	الآنسة فيردور
Cratien	جراسيان

إيزابيــــــل

جيرار لا كـاز الـذي تقابلنـا عنـده في أغـسطس عـام 1891م قـام باصطحابي وفرنسيس جام إلى قصر « الكارفورش » بعدما اندثر ، ولم يبق منه غير أطلال خَرِبَةٍ وحديقة شاسعة مهملة يـصول ويجـول فيهـا الصيف بتبهرجه . حتى مدخل القـصر لم يعـد يحميـه شيء ؛ فالخنـدق رُدِمَ حتى نصفه ، والسياج المحيط به تهدم ، والبـاب الحديـدي لم يعـد مُحكمًا لدرجة أنه يستسلم لأول دفعة من كتف أحدنا . اختفت الممرات بعد أن جاوزت الأرض الخـضراء حـدودها .. فـترى بعـض الأبقـار طليقة ترعى الكلأ الغزير .. بينما تنشد بعض الأبقـار الأخـرى مكانًـا رطبًا وسط الأدغال المترامية الأطراف . لايميز المـشاهد هـذا الفـيض البري.. زهـرة غريبـة كانـت أم أوراق شـجرةٍ مختلفـةٍ عـن النباتـات القديمة تكاد تخنقها النباتات الشائعة بأنواعها .

كنا نسير خلف جيرار دون أن ننطق بكلمة واحدة ، كنا مبهـورين بروعة المكان والتوقيت ، ونشعر بكل ما ينطوي عليه ذلك الرخاء من حزن وهجر . بلغنا سلم القصر ودرجاته الأولى الغارقة في الأعشاب ، بينما درجاته العليا محطمة ومنفصلة بعضها عن البعض الآخر . وما إن وصلنا إلى أبواب غرفة الاستقبال وهي نوافـذ في الوقـت نفـسه حتـى اعترضنا مصاريعها المنيعة . لم نتمكن من دخول القصر إلا مـن فتحـة في القبو ، تسللنا عبرها كما اللـصوص .. كـان هنـاك سـلم يـؤدي إلى

المطابخ فلم تكن الأبواب الداخلية مغلقة .. وواصلنا متنقلين من غرفة إلى أخرى بحذر ، فالأرضية تميد تحت أقدامنا موشكة على الانهيار ، نضغط صوت خطواتنا ليس خشية من أن يسمعنا أحد ، ولكن لأن الصدى الذي أحدثه وجودنا في القصر الخالي المتَّسم بالسكون المُطْبِقِ كان يدوِّي لدرجة الفزع ، خاصة أن نوافذ الطابق السفلي خلت من الألواح الزجاجية .

في شبه الظلام الذي يكتنف غرفة الطعام وجدت أعشاب البينونيا من خلال مصراعي النافذة بسيقانها الضخمة اللينة البيضاء اللون .

جيرار تركنا ، واعتقدنا أنه فضّل أن يشاهد وحده مرة أخرى هذا القصر الذي عرف أصحابه ، فواصلنا تفقدنا بدونه ؛ إذ ربما يكون قد سبقنا إلى الطابق الأول مُجتازًا تلك الغرف الفارغة التي تخيم عليها الكآبة . في إحدى تلك الغرف غصن من البقس لا يزال يتدلى على الجدار يقيده إلى أبزيم شريط حريري انطفأ لونه وبدا متأرجحًا عند طرفي رباطه في وهن ، فأدركت أن جيرار انتزع منه فرعًا وهو يمر منذ برهة .

قابلنا جيرار في الطابق الثاني ، بالقرب من نافذة أحد الممرات كانت بلا زجاج ينفذ منها حبلٌ يتدلى من الخارج وهو لأحد الأجراس.. هممت بجذبه برقة وعلى مهل فشعرت بذراع جيرار تمسك بذراعي ، ولكنها زادت من مداها بدلا من أن توقف حركتي .

وفجأة دوَّى صوت مكتوم بالقرب منا بحيث جعلنا ننتفض في فزع بعدها ، ولما عاد السكون سمعنا دقتين متباعدتين لم يلبث أن غاب صداهما .

استدرت ناحية جيرار فرأيت شفتيه ترتعدان وهو يقول :

هيا بنا ننصرف ؛ فأنا في حاجة إلى استنشاق هواء آخر .

عند خروجنا اعتذر جيرار عن استمرار اصطحابنا ، بدعوى معرفته لشخص في الأحياء المجاورة يريد أن يستفسر عن أحواله . فلما أدركنا من لهجته أنه لا يليق أن نصحبه عدت مع جام إلى حيث لحق بنا جيرار في المساء .

قال جام لجيرار بعد برهة :

- صديقي العزيز قررت ألا أروي أية قصة قبل أن تطلعنا على هذه القصة التي تملك عليك فؤادك ، علما بأن قصص جام كانت مبعث متعة في سهراتنا ..

قال جيرار :

يسعدني أن أروي لكما القصة التي كان القصر مسرحًا لها ، فضلًا عن أنني لا أستطيع عرضها ، أو استعراضها كاملة ؛ لأنني أخشى ألا أتمكن من ذلك فأسلب من وقائعها ذلك السحر الذي يغلف الألغاز ، وكان فضولي فيما مَضَى يخلعه عليها .

عقَّب جام قائلا :

- لا تبالِ بنظام أو تسلسل ..

وقلت :

- ما الداعي لرواية الوقائع طبقًا للتسلسل التـاريخي ، ومـا المـانع من عرضها كما عُرِضَتْ لك ؟

قال جيرار :

- هكذا تتيحان لي أن أتحدث عن نفسي كثيرا ..

ردَّ جام من فوره قائلا :

- لا أحد منا يفعل غير ذلك .. وإليكم القصة التي رواها جيرار..

1 يكاد يكون من الصعب اليوم إدراك الشغف الذي كان يدفعني إلى الحياة، كنت في الخامسة والعشرين من العمر،

لا أدري عن الحياة شيئا إلا عن طريق الكتب. وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أظن نفسي روائيًّا. كنت لازلت أجهل أن الأحداث تحجب عن عيوننا بالدهاء والمكر، وذلك الجانب الذي قد يزيد من اهتمامنا بها، وكيف أنها تستغلق علينا وتمتنع إذا لم نكن نعرف كيف نقتحمها.

كنتُ في ذلك الحين أعد لرسالة الدكتوراه عن تاريخ «حكم بوسوييه»، ولم يكن ذلك عن ميل خاص يجذبني إلى بلاغة أصحاب المنابر، وإنما اختياري لهذا الموضوع جاء تكريما لأستاذي الجليل «ألبير دينوس» الذي كان كتابه العظيم «حياة بوسوييه»، على وشك الصدور. وما أن علم الأستاذ دينوس بموضوع رسالتي حتى أبدى استعداده لمساعدتي في منهجه، وتناوله مع أقدم أصدقائه ويدعى «بنيامين فلوش» العضو في مجمع الخطوط والآداب.

هذا الصديق كان يملك وثائق تفيدني في بحثي، خاصةً نسخةً من التوراة بها شرح وحواشٍ بخط بوسوييه، وكان السيد فلوش قد

اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا ، واعتكف في قصر الكارفورش الذي كان الناس يطلقون عليه غالبًا « كارفور » ، وهو من ممتلكات الأسرة في ضواحي « بون ليفيك » ، ولم يعد السيد فلوش يبرح هذا القصر ، ومن دواعي سروري أن « لي » استقبلني فيه، ووضع تحت تصرفي مستنداته ومكتبته وعلمه الغزير الذي قال عنه الأستاذ دينوس إنه علم لا ينضب معينه .

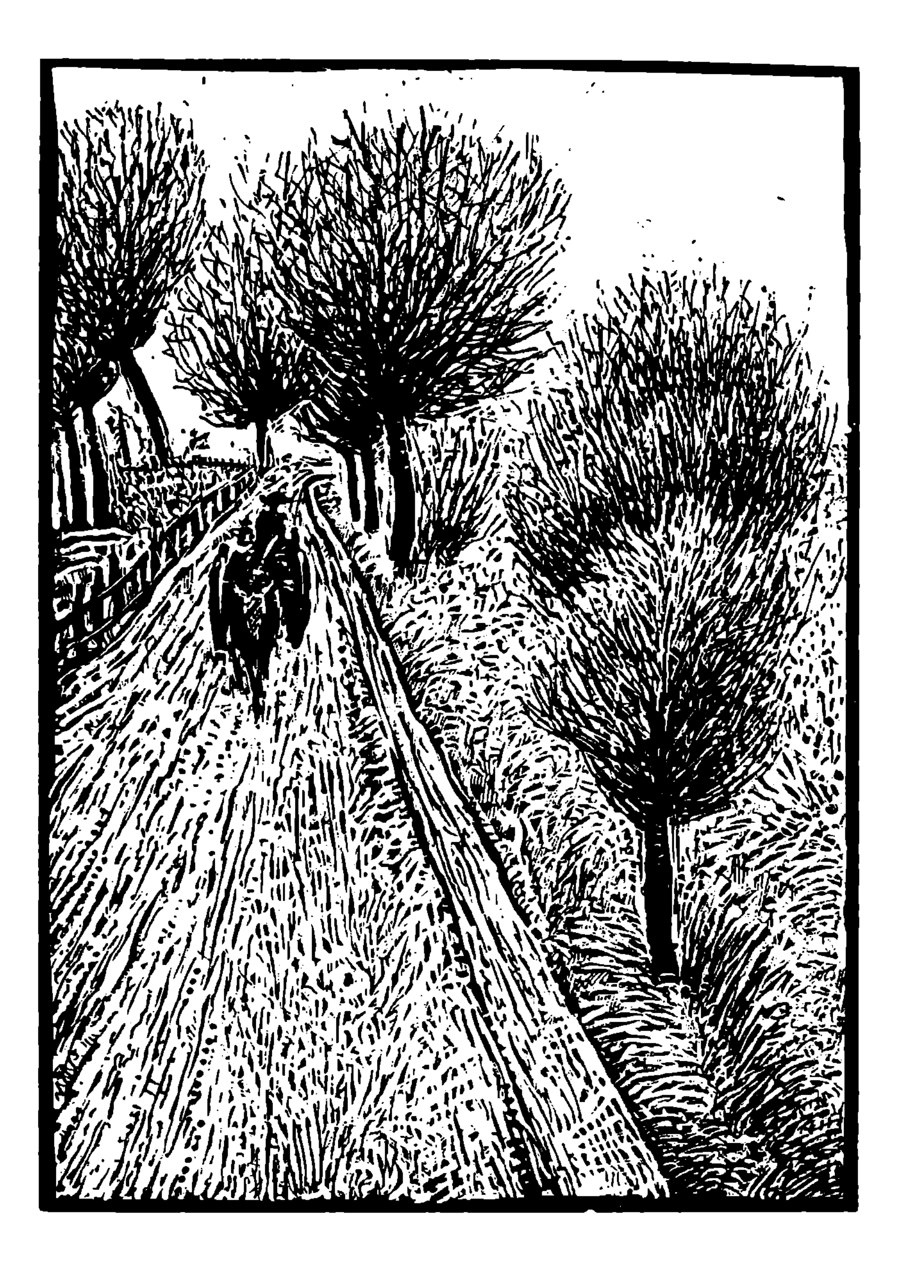
وأخذ الأستاذ دينوس والسيد فلوش يتبادلان الرسائل ، وتبين أن الوثائق كانت أكثر مما توقعت في بادئ الأمر كما توقع أستاذي ، ولم يتوقف الأمر عند الزيارة فقد تحوّل إلى إقامة في القصر ، عرضها عليَّ بلطف السيد فلوش بناء على توصية من الأستاذ دينوس . لم يكن للسيد فلوش وزوجته أولادًا ، ومع هذا لم يعيشا في القصر بمفردهما . كلمات صدرت عفوية عن السيد « فلوش » وتلقاها خيالي جعلتني أتوقع أن أجد في القصر صحبةً جميلةً سرعان ما اجتذبتني أكثر من وثائق القرن السابع عشر العظيم ، والمليئة بالأتربة وكأن بي أدخل القصر لا طالبًا للعلم بل مغامرًا .

حتى أني ملأت القصر بالمغامرة قبل أن أدخله . كنت أردد اسم «الكارفوش » بغموضه وأحدّث نفسي قائلاً : « هنا يتردد هرقل » .. وأعرف ما ينتظرني على طريق الهداية والفضيلة ولكن ما الطريق الآخر ؟ .. الطريق الآخر ؟ ..

في منتصف سبتمبر تقريبًا جمعت أفضل ما في دولاب ملابسي من ثياب متواضعة، وجددت أربطة العنق، ثم رحلت.

لما بلغت محطة «بروي - بلانجي» بين «بون ليفيك» و «ليزيو»، كان الليل قد أسدل كل أستاره تقريبًا.. كنت الوحيد الذي هبط من القطار.. أقبل قروي يرتدي زيَّ الخدم، وأخذ حقيبتي وصحبني إلى عربة كانت تقف في الجانب الآخر من المحطة. حدَّ مشهد الجواد والعربة من جموح خيالي وانطلاقه، فلا يمكن للإنسان أن يتصور منظرا أكثر فظاعة وقبحًا من هذا.. وعاد القروي الحوذي ليتسلم صندوق الأمتعة الذي كنت قد شحنته، وتحت هذا الثقل الزائد ناءت العجلات. ومن داخل العربة فاحت رائحة خانقة شبيهة بتلك التي تفوح من عشش الدجاج.. أردت أن أفتح زجاج الباب لكن مقبض الجلي خرجَ في يدي.. كانت السماء قد أمطرت أثناء النهار، فكان الطريق مُوحِلا، وعند أول منحدر سقطت قطعة من طاقم الجواد فأخرج الحوذي من تحت مقعده طرفًا من حبل وتهيأ لإصلاح مجرة العجلة. كنت قد نزلت من العربة وعرضت على الحوذي أن أمسك له المصباح الذي كان قد أشعله منذ برهة. وهنا تمكنت من أن أرى زيَّ الرجل المسكين الذي أعيد رتقه كما هي حال طاقم الجواد، فقلت له:

الجلد قديم نوعًا!



رمقني وكأنني لعنته ، وقال في لهجة تكاد تكون فظة :

- ومع هذا تمكنّا لحسن حظك من المجيء للقائك ..

فسألته بصوت رقيق :

- هل المسافة تبعد كثيرا عن القصر ؟

- لم يرد بشكل مباشر ولكنه قال :

- بالتأكيد : إننا لانقطع هذه المسافة كل يوم .. ثم أضاف بعد لحظة:

- مضت ستة أشهر تقريبا ولم تخرج العربة ..

فعقّبت في محاولة يائسة لفتح باب الحوار :

- ألَا يتنزه سادتك ؟

- هل تعتقد أنه ليس لدينا عملٌ غير ذلك ؟

كان قد انتهى من إصلاح الخلل فدعاني بإشارة إلى الصعود ، ثم انطلقت العربة من جديد .

كان الجواد يجاهد في ارتقاء المرتفعات .. يتعثر ويكبو في المنحدرات، ويعدو في السهل عدوًا مخيفًا ، وفي بعض الأحيان كان يتوقف فجأة . حدثت نفسي قائلاً : « على هذا النحو الذي نسير به سنصل إلى الكارْفور بعد أن يكون أهل القصر قد فرغوا من تناول

طعامهم ، وحتى بعد أن يكونوا قد ناموا » . توقف الجواد مرة أخرى وبدأ مزاجي ينحرف . حاولت أن أرى البلدة وإذا بالعربة تنحرف - دون أن ألاحظ - عن الطريق الرئيسي وتسلك طريقًا آخر أكثر ضيقًا وأقل تمهيدًا .. لم تكن مصابيح العربة تضيء يمينًا ويسارًا فيما عدا سياجًا متصلا مرتفعًا وكثيفا كان يحاصرنا ويسد علينا السبيل .. ويفسح الطريق في لحظة ، ثم لا يلبث أن يطبق من جديد بعد عبورنا ،

وما أن بلغت العربة ربوة وعرة حتى توقفت من جديد .. اقترب الحوذي من الباب وفتحه ، ثم قال بكل بساطة :

- هل يتكرم سيدي بالنزول ؟ المطلع وعر بعض الشيء على الجواد..

وصعد بنفسه المطلع ممسكا بزمام الجواد ، وفي منتصف المسافة التفت نحوي وكنت أسير وراءه ، وقال بنبرة رقيقة :

- وصلنا بسرعة ، انظر ها هي الحديقة ..

استطعت أن أميّز دغلا كثيفا من الأشجار ، كان يشكّل طريقًا تحفُّهُ أشجار الزان الضخمة ، سرعان ما خضنا فيه فلقينا الطريق الأول الذي كنا قد انحرفنا عنه .. دعاني الحوذي إلى صعود العربة مرة أخرى، وسرعان ما بلغنا الباب الحديدي فتسللنا إلى الحديقة .

كان الليل من السواد بحيث لم أستطع أن أتبيَّن شيئا من واجهة القصر .. أوصلتني العربة أمام سلم يتكون من ثلاث درجات، ارتقيتها مبهورًا من ضوء المشعل الذي كانت تحمله في يدها وتسلطه نحوي امرأة خالية من معالم السن وملامح الجمال ، سمينة الجسم متواضعة الثياب .. حيّتني تحية مفعمة بالجفاء ، فانحنيت لها وقلت مترددًا :

- مدام فلوش بالطبع!

بل الآنسة فيردور ، السيد فلوش وزوجته نائمان ويعتذران عن عدم حضورهما لاستقبالك ، فالناس هنا يتناولون عشاءهم مبكرا ..

- وأنت يا آنستي هل جعلتك تسهرين حتى ساعة متأخرة ؟

قالت دون أن تلتفت إليَّ :

- أوه ! أما أنا فقد اعتدت ذلك ..

كانت قد سبقتني إلى الممر فقالت :

- أعتقد أنك لا تمانع في تناول شيء ما !

- الحق أني لم أتناول عشائي ..

أدخلتني حجرة طعام شاسعة أعدت فيها وجبة عشاء دسمة مثل تلك الوجبات التي تعقب الصوم ..

الفرن مُطْفأ في هذا الوقت ، وفي الريف على الإنسان أن يقنع بما يجده ..

قلت وأنا أجلس إلى المائدة أمام صحن من اللحم البارد :

- لكني أجد أن هذا عظيما !

جلست منحرفة على مقعد بالقرب من الباب ، وطوال تناولي الطعام ظلت خافضة الرأس ، وحاولت مرات كلما انقطع خيط الحديث أن أعتذر لها عن استبقائي لها إلى جواري ، ولكنها جعلتني أدرك أنها تنتظر حتى أنتهي من عشائي لترفع المائدة .

- لو انصرفت أنا فكيف ستعرف حجرتك ؟

تعجلتُ وأكلتُ بسرعة ، وإذا بباب الممر يفتح ويدخل منه قس أشيب الشعر صارم الوجه لكنه لطيف .. أقبل نحوي وهو يمد يده قائلاً:

- لم أشأ أن أرجئ إلى الغد الاستمتاع بتحية ضيفنا ، ولم أنزل إليك قبل الآن لأنني كنتُ أعلم أنك تتبادل الحديث مع الآنسة أوليمب فيردور .

قال ذلك وهو يوجه إليها ابتسامة خبيثة ، بينما كانت هي تزم شفتيها وتبدي سحنة خشنة ، واستطرد يقول بينما كنت أغادر المائدة :

- الآن وقد انتهيت من طعامك فستترك الآنسة أوليمب هنا لتعيد النظام إلى المكان . وأعتقد أنها ترى من اللائق أن تكل إلى رجل أمر

اصطحاب السيد لاكاز إلى حجرة نومه ، وأن تتنازل عن مهام وظيفتها في هذا الشأن .

انحنى أمامها باحترام متكلف فحيّته بطريقة مقتضبة :

- أوه ! أتنازل لك يا سيدي القس .. أنا كما تعلم أتنازل دائما .. ثم استطردت وقد عادت إلينا فجأة :

- كنت ستنسيني أن أسال سيدي لاكاز عما يتناوله في الإفطار ؟

- ما تشائين يا آنستي .. ماذا تتناولون هنا عادة؟

- كل شيء .. أعد الشاي للسيدات ، والقهوة للسيد فلوش ، والحساء لسيدي القس ، ومشروب خاص للسيد كازيمير .

- وأنت يا آنستي ألا تتناولين شيئا ؟

- أوه ، أنا أتناول القهوة باللبن فحسب .

- لو سمحتِ سأتناول معكِ قهوة باللبن .

- فقال القس وهو يمسك ذراعي :

- هيه ! هيه ! حاذري يا آنسة فيردور يبدو لي أن السيد لاكاز يغازلك!

- هزت كتفيها ، ثم حيّتني تحية سريعة بينما القس يسحبني معه .. كانت حجرتي تقع في الطابق الأول في نهاية الممر .

قال القس وهو يفتح باب حجرة كبيرة تضيئها نار المدفأة :

- عفوك اللهم وغفرانك ، لقد أوقدوا لـك نـارًا .. ربـما تكـون في غنًى عنها .. صحيح أن الليـل في هـذه البلـدة يكـون رطبـا ، وفـصل الشتاء هذا العام غير عادى .

كان قد اقترب من المدفأة فمدّ لها راحتيه العريـضتين محـوِّلا وجهـه عنها .. وكأنه عابد يدفع عن نفسه محاولات الإغراء ، وكان استعداده للحديث يبدو لي أكثر من استعداده لتركي لكي أنام .

بدأ حديثه قائلا وقد رأى صندوقي وحقيبتي :

- آه ، أحضر لك جراسيان أمتعتك !

سألته قائلا:

- جراسيان هو ذلك الحوذي الذي صحبني ؟

- وهو أيضا البستاني ؛ لأن أعماله كحوذي قلما تشغل وقته ..

أخبرني بالفعل أن العربة لا تخرج كثيرًا ..

خروجها يعتبر حدثا تاريخيًّا . ثم إن السيد دي سان أوريول لم يعـد يملك جيادًا منذ زمن بعيد ، ولذلك ففي المناسبات الكبرى مثل هـذه الليلة نستعير جواد المزارع ؛ فرددت مندهشًا :

- السيد دي سان أوريول ؟

- أجل أعرف أنك جئت للقاء السيد فلوش ، ولكن قصر الكارفوش ملك لشقيق زوجته ، وغدًا ستشرف بمعرفة السيد دي سان أوريول وزوجته .

- ومَن هو السيد كازيمير الذي لا أعرف عنه غير أنه يتناول مشروبًا خاصا في الصباح ؟

- حفيدهما وتلميذي ، شاء الله أن أقوم بتعليمه منذ ثلاث سنوات.. قالها وهو يغمض عينيه في خشوع ، وكأن الأمر يتعلق بأختك فيفيل ..

سألته قائلا :

- أبواه هنا ؟

- لا على سفر .. ضغط على شفتيه بقوة ، ثم قال من فوره :

- أنا أعرف يا سيدي أي دراسات نبيلة مقدسة جاءت بك ..

قاطعته من فوري ..

- أوه ! لا تبالغ في قدسيتها ، إنها لاتهمني إلا من وجهة نظر المؤرخ..

قال وهو يبعد بيده كل فكرة غير طيبة :

- لايهم ؛ للتاريخ أيضًا حقوقه .. ستجد في السيدة فلوش أرق مرشد وأكبر دليل .

- هذا ما أكده لي أستاذي دينوس ..

- آه أوأنت تلميذ البير دينوس ؟

ضغط على شفتيه من جديد .. تجرأتُ ، ووجهتُ إليه هذا السؤالَ:

- هل درست على يديه ؟

ردَّ بجفاء :

- كلَّا ، ما أعرفه عنه جعلني ألتزم الحذر .. إنه مغامر فكري ، وفي مثل سنك ينجذب المرء بسهولة لما يشذ عن المألوف ، ولما لم أجب بشيء قال :

- كان لنظرياته بعض التأثير على الشباب ، ولكن الناس بدأوا يفيقون منها مثلما بلغني .

كانت رغبتي في الجدال أقل من رغبتي في النعاس ، ولما وجد أنه لن يَحْصُلَ مِني على إجابة ، استطرد قائلاً :

- سيكون السيد فلوش خير ناصح لك ، ثم قال بعد تثاؤب لم أملك إخفاءه :

- الوقت متأخر غدا ، لو أردت يمكننا أن نجد وقتا كافيا لاستئناف الحديث ، فلا بد أنك مرهق بعد هذا السفر .

- الحق يا سيدي القس أن النعاس يهدني .

ما إن غادر الحجرة حتى رفعتُ الحطب من المدفأة ، وفتحتُ النافذة على مصراعيها الخشبيين ، فإذا بهبة ريح خفيفة تراقص لهب

شمعتي فأطفأتها لي .. أتأمل الليل .. كانت حجرتي تفضي إلى الحديقة، ولكنها لا تطل على واجهة القصر شأن حجرات الممر الست ، وأنها تتمتع بمظهر يمتد فيه مدى البصر أطول وأبعد .. سرعان ما أوقف نظرتي مجموعة من الأشجار لا يكاد يظهر فوقها إلا جانبٌ ضئيل من صفحة السماء .. كان الهلال قد لاح فيها منذ قليل ، ثم لم يلبث أن غاب تحت الغمام .. كانت السماء قد أمطرت من جديد ، وكانت الأغصان لا تزال تقطر ماء .

حدثت نفسي وأنا أعيد غلق النوافذ :

- هذا جو لا يدعو للبهجة .

أمام هذا التأمل الخاطف سرت الرعدة في نفسي أكثر مما سرت في جسدي ، فأعدت الحطب إلى المدفأة ، وأزكيت النار وسعدت عندما عثرت في فراشي على جرة ماء دافئ .. لاشك أن الآنسة فيردور دستها فيه بِحسٍّ رعايتها وعنايتها .

بعد برهة لاحظت أني نسيت وضع حذائي خارج الحجرة فنهضت وخرجت للحظة إلى الممر .. رأيت في الطرف الآخر من الدار الآنسة فيردور ، كانت حجرتها تقع فوق حجرتي .. تبينت ذلك من خطواتها الثقيلة التي شرعت بعد قليل تزلزل السقف من فوقي، ثم أطبق صمت عميق ، وبينما كنت أستغرق في النوم رفعت الدار مرساتها لتجتاز رحلة الليل البحرية .

2

استيقظت مبكرا على صوت ضوضاء صادرة من المطبخ ، وكان أحد أبوابه يفتح على نافذتي مباشرة . وعندما دفعت مصراعيْ النافذة سعدت برؤية سماء صافية ، أما الحديقة التي لم تكن قد جفت تماما من آثار وابل مطر حديث ، فكانت تتلألأ بينما يميل الجو إلى الزرقة . وعندما هممت بإغلاق النافذة إذا بي أرى طفلا ضخمًا يخرج من بستان الخضراوات ويهرول نحو المطبخ .. كان من العسير تحديد عمره ، لأن وجهه يبدو أكبر من جسمه بثلاث أو أربع سنوات . كان مشوّها معوّجا وساقاه الملتويتان تجعل مشيته غريبة ؛ فهو يتقدم بانحراف أو يسير قفزا كأنما تلتوي ساقاه كلما سار خطوة .. كان هو كازيمير تلميذ القس ، وكان يلازمه كلب ضخم يثب معه ويحتفل به كان الصبي يحاول أن يحمي نفسه من مغبة هوسة الكلب المربكة ولكنه ما إن كاد يبلغ المطبخ حتى أوقعه الكلب فهوى في الوحل . وهنا هبت إليه سيدة بدينة قامت بإنهاضه وهي تقول :

آه ، هل يرضى الله ما تصنعه بنفسك !.. وكمْ نصحناك بترك «ترنو» في العربة .. هيا ! تعال من هنا لكي أنظفك .

وسحبته إلى المطبخ .. في هـذه اللحظـة سـمعْتُ طرقـا عـلى بـاب حجرتي.. خادمة تحمل ماء سـاخنا للاغتـسال ، بعـد ربـع سـاعة رن الجرس معلنا موعد الفطور ، وعنـدما دخلـت حجـرة الطعـام ، قـال القس وهو يتقدم نحوي :

- مدام فلوش أعتقد أن ضيفنا الطيب قد وصل .

كانت مدام فلوش تنهض من مقعدها ، ولكنها لم تبدو أطول وهي جالسة .. انحنيت أمامها بشدة فحيّتني بشكل خاطف ؛ ربما تكون قد تلقت في فترة من حياتها ضربة قوية فوق رأسها فظل الرأس غائرا بين كتفيها بطريقة لا تعالج .. وكان السيد فلـوش قـد وقـف إلى جوارهـا مادًّا يده مرحبا بي . كان العجوزان متماثلين في الطول والملبس والـسن والجـسم .. ظللنـا لحظـات نتبـادل التحيـات والمجـاملات المتـشابهة ونتحدث في وقت واحد ، ثـم سـاد صـمت رهيـب عنـدما وصـلت الآنسة فيردور تحمل إبريق الشاي .

قالت مدام فلوش التي لم تستطع أن تـدير رأسـها فتوجهـت إلينـا بكل نصفها العلوي :

- صديقتنا الآنسة أوليمب كانـت تتحـرق لتعـرف هـل هنئـت في نومك ، وهل أراحك الفراش ؟

- فأجبت بـأنني نمـت هانئـا حقًّـا ، وأن جـرة المـاء الـدافئ التـي وجدتها في الفراش أفادتني كثيرًا .

خرجت الآنسة فيردور بعد أن قدّمت لي التحية :

- في الصباح ألم تزعجك ضوضاء المطبخ ؟

كررت النفي فقالت مدام فلوش :

- يجب أن تقدِّم شكواك ، أرجوك لأن ما من أمر أسهل علينا من أن نعد لك حجرة أخرى ..

ودون أن يقول السيد فلوش كلمة ، كان يهز رأسه بانحراف ، ويؤيد بابتسامة كل عبارة تتفوّه بها زوجته ، فقلت :

- إنني أرى جيدًا أن الدار رحبة ، ولكنني أؤكد لكم إنني لا يمكن أن ألقى مقامًا خيرًا من مقامي هنا .

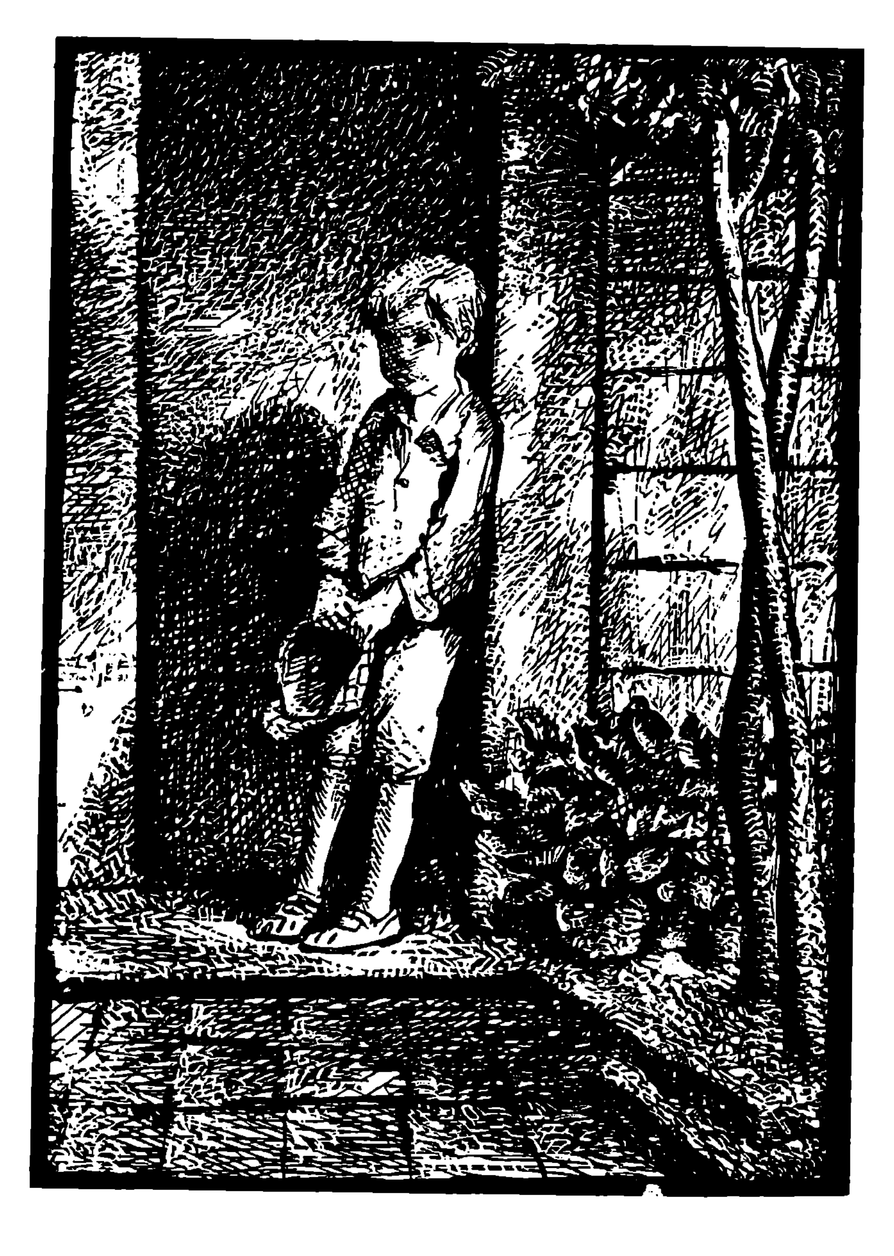
قال القس :

- السيد فلوش وزوجته يحبان تدليل ضيفيهما .

جاءت الآنسة أوليمب بصحن خبز مقدد ، فدفعت أمامها ذلك الكائن الذي كنت قد رأيته ينقلب على رأسه منذ قليل .. جذبه القس من ذراعه قائلًا :

- هيا ياكازيمير أنت لم تعد طفلًا صغيرًا .. تقدم لتحية السيد لاكاز كما يفعل الرجال ، مُد يدك .. أُنظر أمامك . التفت القس نحوي، وقال كأنه يجد له العذر :

- لم يألف بعد عادات المجتمع .



أحرجني حياء الطفل ، فسألت مدام فلـوش متجـاهلًا المعلومـات التي أمدني بها القس بالأمس :

- أهو حفيدك؟

أجابت قائلة :

- حفيد شقيقتي .. سترى فيما بعد شقيقتي وزوجها أي جدية .

حاولت الآنسة فيردور أن تفسر موقف الطفل فقالت :

- لم يكن يجرؤ على العودة ؛ لأنه كان قد لوّث ثيابـه بالوحـل وهـو يلعب مع ترنو .. فقلت وأنا ألتفت نحو كازيمير ببشاشة وود :

- ما ألطفه مـن لعـب ، كنـت أنظـر مـن النافـذة عنـدما أوقعـك الكلب .. أو لم يصبك بسوء ؟

قال القس موضحا بدوره :

- يجب أن نخبر السيد لاكاز أن الطفل لا يجيد الاتزان تماما .

يا إلهي .. لقد لاحظـت ذلـك بنفسـي دون حاجـة لأي توضـيح ، وفجأة أصبح هذا القس الضخم ذو العينين المختلفتـين اللـون بغيـضا إلى نفسي .

لم يجب الطفل على سؤالي ، غير أن وجهه احمرَّ خجلا .. ندمت عـلى سؤالي فربما يكون قد حمل تلميحـا إلى عاهتـه . كـان القـس قـد غـادر

المائدة بعد أن فرغ من تناول حسائه فأخذ يذرع الحجرة ذهابا وإيابا ، وكان عندما يمسك عن الكلام يضغط على شفتيه بحيث تصبح شفتيه العليا نتوءا أشبه بشفة الكهل الأدرم .. توقف خلف كازيمير ، بينما كان الأخير يفرغ قدحه ، قال القس :

- هيا هيا .. أيها الفتى ابن زهير في انتظارنا .. فنهض الفتى وخرج الاثنان .

وما إن انتهى الفطور حتى بادرني السيد فلوش بقوله :

- تعال معي إلى الحديقة أيها الضيف الشاب لتزدني من أخبار باريس .

كانت لغة السيد فلوش تزدهر مع الفجر ، ودون أن ينصت كثيرا إلى إجاباتي أخذ يسألني عن صديقه جاستون وعن دراساتي .. لم أحدثه إلا عن مشروعاتي الأدبية بالطبع ، ولم أكشف له عن نفسي إلا الجانب الخاص بالسوربون ، ثم شرع يقص تاريخ الكارفورش الذي لم يبرحه تقريبًا منذ خمسة عشر عامًا ، وتاريخ الحديقة وتاريخ القصر ، وأرجأ إلى حين تاريخ الأسرة التي كانت تسكن القصر قبله ، ولكنه بدأ يروي لي كيف حصل على مخطوطات القرن الثامن عشر التي يمكن إن تهمني في بحثي .. كان يسير إلى جواري في خطى قصيرة مسرعة ولاحظت أن سرواله منخفض بحيث يكاد يسقط على قدمه ، ولكنه مرفوع من الخلف إلى أعلى الحذاء ، ولا أدري كيف

استطاع أن يحافظ عليه في هذا الوضع ؟! لم أعد أنصت إليه إلا بأذان شاردة ، فكان تفكيري خاملا من تأثير الجو الغائر ، ويفعل ما يشبه التخدير النباتي . وبينما كنا نسير على هذه الحال في طريق تحف به أشجار الكستناء العالية التي تشكّل قبوا فوق رءوسنا أدركنا آخر الحديقة . وهناك وجدنا مقعدا يحميه من الشمس ساتر من الأشجار الظليلة ، فدعاني السيد فلوش إلى الجلوس ، وقال فجأة :

- هل أخبرك القس سانتال بأن صهري به شيء من الـ ...؟

لم يكمل ولمس جبهته بسبابته ..

بلغ ذهولي حدًّا لم أجد معه ما أجيب به ، فاستطرد قائلا :

- نعم البارون دي سان أوريول صهري ، ربما لم يخبرك القس بذلك كما لم يخبرني ، ولكني أصبحت على علم بأنه يعتقد ذلك كما أعتقد ... وبالنسبة لي ، ألم يخبرك القس بأن بي شيئا من الـ..

- أوه ، سيدي فلوش كيف تظن أن ...

فقال وهو يربت على يدي بلا كلفة:

- ولكن يا صديقي الشاب لو صح ظني فإنني أجده شيئا طبيعيا.. ماذا تنتظر ؟ لقد اعتدنا هنا أن نعتزل العالم ، نكاد نكون بمنأى عما يجري فيه .. لاشيء يحمل إلينا الـ.. التغيير .. كيف أعبر ؟ نعم ، لقد كنت لطيفًا إذ جئت لزيارتنا .

فلما حاولت أن آتي بحركة ، عاد يقول :

- أعيدها ثانية كنت لطيفا إذ جئت ، وسأقول هذا المساء لصديقي القدير دينوس ، وقد يتراءى لك أن تطلعني على ما يجيش بصدرك من موضوعات ، وما يضطرب له فكرك من مسائل ، وما يستحوذ على اهتمامك من مشكلات .. أنا على ثقة بأنني لن أدرك شيئا مما ستقول .. بماذا كنت أستطيع أن أجيب ؟ رحت أخط في الرمال بطرف عصاي فاستطرد يقول :

- كما ترى ، فقدنا اتصالنا بالعالم الخارجي تقريبا ، كلا كلا لا تعترض ؛ فلن يجدي ذلك شيئا .. البارون أضخم ، ولكنه مُدَّعٍ بحيث يحاول أن يداري صممه ، وهو يفضل أن يتظاهر بالسمع على أن يطلب من محدثه أن يرفع صوته . أما بالنسبة لي فإنني فيما يتعلق بالأفكار التي تشغل العالم اليوم فيبدو لي أنني لا أقل عنه صمما ، ومع كلٍّ فإنني لا أجد غضاضة في ذلك ، بل لا أحاول أن أبذل مجهودا كبيرا حتى أفهم . انتهى الأمر بي من جراء عشرتي لما سيون ومسويه إلى الاعتقاد بأن المشكلات التي كانت تؤرق هاتين العقليتين تعادل في جمالها وأهميتها تلك المشكلات التي كنت شغوفًا بها في مطلع شبابي .. مشكلات ربما لم تكن تفهمها هاتان العقليتان .. كما إنني لا أفهم تلك المشكلات التي تستهويك اليوم .. لذلك لو تكرمت يا زميل المستقبل فإنني أفضّل أن تحدثني عن دراستك ، مادامت هي أيضًا دراستي ،

ولا تؤاخذني إذا لم أسألك عمن تحب من الموسيقيين والشعراء والخطباء، ولا عن نظام الحكم الذي تفضله .

نظر إلى ساعة مستديرة تتعلق بشريط أسود، وقال وهو ينهض واقفا:

- فلنعد الآن، إنني أعتبر نهاري ضائعا إن لم أباشر عملي في العاشرة، فمددت له ذراعي فتناولها .. ولما كنت أتمهل في سيري أحيانًا من أجله كان يقول :

- فلنسرع ! فلنسرع ! ما أشبه الأفكار بالأزهار .. كانت مكتبة الكارفورش تتألف من حجرتين، يفصل بينهما ستار بسيط، وكانت إحداهما شديدة الضيق يصعد المرء إليها بواسطة ثلاث درجات، وكان السيد فلوش يعمل فيها وهو يجلس إلى مكتب أمام نافذة لا تطل على شيء؛ بسبب وجود دردارة تمد أغصانها حتى تلامس زجاج النافذة . وكان يوجد على المكتب مصباح عتيق له خزان يعلوه غطاء أخضر من الخزف، وتحت المكتب حشية لتدفئة القدمين . وفي أحد الأركان موقد صغير، وفي الركن الآخر مكتب آخر محمل بالمعاجم، وبينهما خزانة تستخدم كرف لحمل الأوراق . أما الحجرة الثانية فقد كانت فسيحة، بها كتب تغطي الجدار وتصل حتى السقف، وكان بها نافذتان ومكتبٌ كبير في الوسط .

قال لي السيد فلوش :

- هنا سيكون مقامك .

فلما صحت معترضًا! .. قال :

- كلا ، كلا أنا اعتدت على الخلوة ، والحق أقول إنني أجد فيها راحتي بلا غضاضة ، وإذا شئت أسدلنا الستار حتى لا يضايق أحدنا صاحبه .

- قلت معارضا : أوه ! ليس من أجلي أنا ، فإذا كنت أشعر حتى الآن بضرورة الانفراد أثناء العمل . فإنني لا ..

عقّب مقاطعًا :

- إيه ، حسنًا ! سنتركه إذًا مرفوعًا ، ومن ناحيتي سأجد متعة كبيرة في أن ألمحك بطرف عيني .

وبالفعل ما كنت أرفع رأسي عن عملي في الأيام التالية إلا وألتقي بنظرة الرجل الطيب الذي يبتسم لي وهو يهز رأسه خشية أن يضايقني أو يحوّل عينيه عني ويتظاهر بالانغماس في القراءة ، وسرعان ما اهتم فوضع تحت تصرفي كل ما أحتاجه من كتب ومخطوطات ، وكان معظمها موجودًا على رف الحجرة الصغيرة ، وكانت تفوق في عددها وأهميتها ما ذكره لي الأستاذ دينوس ، وكان لابد لي على الأقل من أسبوع كامل لكي أنقل البيانات القيّمة التي أعثر عليها بين ثناياها .

وأخيرًا فتح السيد فلوش خزانة غاية في الصغر ، كانت بجوار الرف وأخرج منها نسخة الكتاب المقدس الشهيرة التي كان يملكها بوسويه والتي كان قس مدينته ، قد خطّ عليها أمام الآيات التي أصبحت متونا تواريخ إلقاء العظات التي أوحت له بها تلك الآيات .. ودهشت لأن ألبير دينوس لم يستفد من هذه البيانات في أبحاثه .. ولكني علمت من السيد فلوش أنه لم يحصل على هذا الكتاب إلا منذ وقت قصير .

استطرد قائلا :

– لقد كتبت فعلا مذكرة بشأنها ، وإني أُهنئ نفسي الآن ، لأني لم أخبر أحدا بها ، فستفيدك في رسالتك بما فيه من جدة وطرافة .

اعترضت مرة أخرى بقولي :

– كل ما لرسالتي من قيمة وفضل ، أدين به لفضلك فهل تتكرم يا سيد فلوش وتقبل مني أن أهديها لشخصك كدليل بسيط على عرفاني بالجميل ؟

ابتسم ابتسامة يشوبها الحزن :

– عندما يكون الإنسان موشكًا على فراق الدنيا ، فإنه يبتسم راضيًا.. هذا ما يحقق له بعض الخلود .

وجدت أنه ليس من الذوق في شيء أن أتمادى في هذا الشأن ، وإذا به يستطرد بقوله :

- الآن .. عليك بالاستيلاء على المكتبة ولا تكترث بوجودي إلا عندما تريد أن تستفسر مني عن شيء . خذ ما تحتاجه من أوراق .. إلى اللقاء .

وبينما كنت أنظر إليه مبتسما ، وأنا أهبط الدرجات الثلاث أشار بيده قائلا :

- إلى اللقاء !

فنقلت إلى الحجرة الكبيرة الأوراق التي تمثل باكورة عملي . ودون أن أبتعد عن المكتب الذي كنت أجلس إليه تمكنت من رؤية السيد فلوش في حجرته الصغرى ، وتحرك لحظات ليفتح بعض الأدراج ، ثم يغلقها من جديد ، ويخرج بعض الأوراق ، ثم يعيدها إلى مكانها متظاهرًا بالانشغال - وتبين لي حقا أنه كان في غاية الاضطراب ، أو على الأقل مُحْرَجًا بسبب وجودي ، فإن أقل خلل في تلك الحياة المنظمة غاية التنظيم يمكن أن يخل باتزان التفكير .. وأخيرا استقر إلى مكتبه وغاص حتى منتصف ساقيه في الحشية ولم يعد يبدي حراكًا .

بالنسبة لي ، كنت أتظاهر بالانهماك في العمل إلا إني وجدت مشقة كبرى في السيطرة على تفكيري .. بل لم أحاول ذلك فقد كان تفكيري مركّزًا على الكارفورش ، وكأنه يحوم حول برج قصر محاولًا اكتشاف

مدخله .. كل ما كنت أحاول أن أقنع بـه نفـسي هـو أني فطـن ذكـي ، وكنت أحدث نفسي قائلًا :

صديقي أيها الروائي ، سترى وأنت أمام التجربة الوصفَ !آه ، آه! ليس الوصف هو المهم الآن ، وإنما المهم هو الكشف عن المخـبر تحـت المظهر .. لو غفلت عن أية حركة ، أو أية لفتة دون أن تجد لهـا التفـسير النفسي والتاريخي الكامل ، فأنت لا تعرف مهنتك .

نظرت نحو السيد فلوش وكان يعرض لي من جانـب فرأيـت أنفـا ضخما لا يعبر عن شيء ، وحاجبين كثيفين وذقنا حليقا لا يكـف عـن الحركة ، كان صاحبه يمضغ تبغا .. وفكرت في أن ما من شيء يـضفي الغموض على وجه الإنسان مثل قناع الطيبة الذي يغلفه .

وإذا بجرس الغداء يفاجئني ، وأنا غارق في هذه الخواطر.

3

على هذا الغذاء قدمني السيد فلـوش دون سـابق إنـذار إلى السيد سـان أوريـول وزوجته . وكـان في إمـكان القس أن يخطرني بذلك مساء أمس . وأتذكر أنني فيما مـضى شـعرت بـنفس الدهشة عندما شاهدت لأول مرة في حديقة النباتـات طـائر الـنمام أو طائر الغواص . ولا أعرف أيهما كان أكثر غرابة من الآخـر البـارون أم البارونة ، فهما زوجان متماثلان مثل السيد فلوش وزوجته ، ولـو قـدر لهما أن يوضعا في أحد المتاحف . لوضعا متجـاورين بـلا تـردد خلـف واجهة زجاجية قريبًا من « الأنـواع المنقرضـة » . شـعرت نحوهمـا في البداية بإعجاب غامض من ذلك الذي نشعر به أمـام التحـف الفنيـة الرائعة ، أو أمام عجائب الطبيعة ، والذي يتركنا للوهلة الأولى ذاهلين عاجزين عن تحليله . ولم أتمكن كذلك من تحليل انطباعي إلا بعد نظـر وتأمل ..

كان البارون نرسي دي سان – أوريول يرتـدي سروالًا ، قـصيرًا ، وينتعل حذاء بأبزيم بارز ورباط عنق من مادة الموسيلين ، بيـنما تفاحـة عنقه تماثل ذقنه في بروزهـا ، بحيـث تخـرج مـن فتحـة الياقـة محاولـة التخفي تحت ثنايا وشاح منتفخ من الموسيلين هو الآخر ، وكـان ذقنـه

عندما يتحرك فكه يبذل مجهودا كبيرا ليتصل بأنفه الذي يحاول تحقيق ذلك ، وإحدى عينيه كانت مسدودة تماما . أما الأخرى فكان طرف الشفة يهفو إليها بينما تتجه نحوها كل ثنايا الوجه فقد كانت تومض في صفاء قابعة خلف الوجنة ، كأنما تقول : حذارِ أنا وحيدة ، ولكن ما من شيء يفلت مني .

أما زوجته مدام دي سان – أوريول فكانت تختفي تماما في فيض من نسيج الدانتيلا الزائفة ، وكانت يداها الطويلتان المثقلتان بالخواتم الضخمة ترتجفان وهما قابعتان في جوف كميها . أما وجهها فقد كان متدثرا في شبه كساءٍ طويل من الحرير الأسود المبطن بشرائط من الدانتيلا البيضاء .. تحت الذقن عقدت عصابتان من الحرير اكتسبتا اللون الأبيض من أثر المسحوق المتساقط من وجهها الذي أسرفت في نثره بطريقة فظيعة . وعندما دخلت نهضتُ واستقرت أمامي بجانبها ، وطرحت رأسها إلى الوراء ، ثم نطقت بصوت مرتفع خال من التنغيم :

– جاء زمن يا شقيقتي كان الناس فيه أكثر احترامًا وتقديرًا لاسم سان – أوريو.

ساخطة على من ؟ لابد وأنها تريد أن تشعرني أمام شقيقتها أنني لا أقيم عند آل فلوش ؛ لأنها واصلت وهي تميل برأسها جانبًا في لطف واضح وترفع يمناها في تحدٍّ قائلة :

- يسر البارون كما يسرني أن نستقبلك يا سيدي على مائدتنا ، طبعتُ قبلة على خاتم بيدها ووقفتُ بعد القبلة وأنا أشعر بالخجل ، لأن وضعي بين آل فلوش ، وآل سان – أوريول بدا مُحرجًا . إلا أن مدام فلوش لم يبد أنها أعارت قول شقيقها أي اهتمام ، أما البارون فكنت أرتاب في حقيقة أمره على الرغم من أنه كان لطيفًا معي . وطول إقامتي في الكارفورش لم يستطع أحد أن يقنعه بأن يناديني بغير السيد لاسى كازه الآمر ، الذي كان يتيح له أن يؤكد أنه طالما رأى أهلي في النويلوري ، وبخاصة عمي الذي كان يلعب معه لعبة الورق .

- آه ! كان ظريفًا ! كان كلما ألقى بورقة رابحة صاح بأعلى صوته : دومينو !

أحاديث البارون كانت كلها على هذا المستوى تقريبًا .. وعلى المائدة كان هو الوحيد الذي يتحدث ، وبعدها وما إن ترفع المائدة كان يخلد إلى الصمت الشبيه بصمت المومياء .. وعندما غادرنا حجرة الطعام اقتربت مني مدام فلوش وهي تهمس قائلة :

- هل يسمح لي السيد لاكاز بحديث قصير ؟

فبدا لي أنها لم تكن ترغب في أن يستمع أحد إلى هذا الحديث ، لأنها جذبتني إلى ناحية بستان الخضراوات ، وهي تقول بصوت مرتفع أنها تريد أن تريني صفا من الأشجار المعروشة على الجدار .

ما إن تأكدت أن أحدا لا يسمعها بدأت حديثها قائلة :

- حديثي معك خاص بحفيدنا .. أنا لا أريد أن أبدو في نظرك منتقدة لتعليم القس سانتال ، ولكنك وأنت تغوص في مصادر الثقافة نفسها (هكذا قالت) يمكنك أن تقدم لنا النصح في هذا الشأن .

- قولي يا سيدتي .. وثقي في إخلاصي .

- إذًا اسمع أخشى أن يكون موضوع رسالته بالنسبة لصبي مثله له شيء من التخصص .

استفسرت بشيء من الحرج :

- أية رسالة ؟

- الرسالة التي يتقدم بها لشهادة البكالوريا .

عدت أقول وقد آثرت ألا أندهشَ لشيء :

- آه ! بالضبط .. وما موضوعها ؟

- هو هذا .. الأب يخشى أن يكون من شأن الموضوعات الأدبية، أو الفلسفية البحتة أن تزيد من حدة هيام عقلية صبي يميل بطبعه للأحلام .. هذا جانب من مخاوف الصبي ، ولذلك فقد حدا بكازيمير إلى اختيار موضوع تاريخي .

- ولكن هذا الرأي يا سيدتي يقوم على أساس قوي ، والموضوع الذي وقع عليه الاختيار ، ما هو ؟

- أرجو المعذرة ، فأنا أخشى أن أحرف الاسم: « ابن رشد » .

- القس طبعًا لديه من الأسباب ما جعله يختار هذا الموضوع الـذي يبدو لأول وهلة موضوعًا متخصصًا بعض الشيء .

- اختاراه معـا .. أمـا عـن الأسـباب التـي يـذكرها القـس ليـبرر الموضوع فتتضمن جاذبية قصصية من شـأنها أن تثـير اهـتمام كـازيمير الذي يشرد كثيرًا ثم يبدو أن السادة الممتحنين يعلقون على هـذا أهميـة كبيرة ؛ فالموضوع لم يسبق أن تناوله أحد من قبل- فعلا - .

- طبيعي أن المرء لكي يطرق موضوعا لم يـسبق لغـيره أن تناولـه ، يجد نفسه مضطرا إلى الخوض في طرق غير ممهدة .

- طبعا .

- إلا أني أعترف بأن هنـاك مـا يـدعو للقلـق ، ولكنـي لـن أكـون مغالية!

- سيدتي أتوسل إليك أن تثقي في أن صدق إخـلاصي ورغبتـي في خدمتك لا حدود لها .

- حسن ! لا أشك في أن كازيمير لديـه مـن الكفـاءة مـا يؤهلـه في القريب من التفوق في امتحان رسالته ، ولكني أخشى أن تكون رغبـة القس في التخصص وهى رغبة سابقة لأوانها تجعله يهمـل إلى حـد مـا الثقافة العامة كالحساب والفلك على سبيل المثال ..

فسألت وأنا في ذهول :

- وما رأي السيد فلوش في كل ذلك ؟

- أوه ! السيد فلوش يؤيد كل ما يفعل القس أو يقول .

- والوالدان ؟

- لقد عهدا إلينا بالصبي . قالتها بعد تردد ما ، ثم أضافت وقد توقفت عن السير :

أرجوك يا سيد لاكاز أن تتكرم بالحديث إلى كازيمير لكي تطلع على أمره دون أن يبدو أنك تقصد ذلك .. وليكن في غير وجود القس، فقد يرتاب في الأمر وأنا على ثقة أنه بوسعك ..

- بكل سرور يا سيدتي .. لن أعدم الوسيلة لاختلاق سبب للخروج مع الحفيد . سيقوم مثلا باصطحابي في زيارة لركن ما من أركان الحديقة ..

- هو يبدو خجلا مع مَن لا يعرفهم إلا أن الثقة من طبعه .

- لا أشك في أننا لن نلبث أن نصبح صديقين حميمين .

وبعد قليل جمعتنا وجبة العصر مرة أخرى ، فقالت تخاطب كازيمير:

- كازيمير ، عليك باصطحاب السيد لاكاز ليرى المحجر ، فأنا واثقة من أنه سيثير اهتمامه ، ثم قالت وهى تقترب مني :

- انطلقا بسرعة قبل أن ينزل القس فقد يرغب في مرافقتكما ، وعلى الفور خرجت إلى الحديقة يقودني الصبي وهو يعرج ؛ فبدأت قائلًا :

- هذا وقت الفسحة .

فلم يجب ؛ فاستطردت قائلا :

- ألا تفعل شيئا بعد تناول طعام العصر ؟

- أوه : بلى ، ولكن اليوم لم يعد لديَّ ما أنسخه .

- وما الذي تنسخه ؟

- الرسالة .

- آه !

وبعد محاولات من الاستفسار فهمت أن هذه الرسالة هي عمل خاص بالقس ، وهو يستغل الصبي في تبييضها ونسخها لوضوح خطه وسلامته . وكان الصبي يقوم بكتابة أربع نسخ من الرسالة في أربع كراسات مغلفة ، يملأ منها كل يوم بضع صفحات . إلا أن كازيمير أكد لي أنه يجد متعته في قيامه بعملية النسخ .

- ولكن ، لماذا تكتب أربع نسخ ؟

- لأني أجد مشقة في الاستظهار .

- وهل تفهم ما تكتبه؟

- أحيانًا ، وأحيانا أخرى يشرح لي القس ، أو يقول إنني سوف أفهم عندما أكبر .

كان القس بكل بساطة قد جعل من تلميذه ما يشبه سكرتيرا ناسخا، فهل كان هذا هو تصدره لو اجبه؟ شعرت بقلبي يفيض حسرة ، فقررت بلا تردد أن أدخل معه في نقاش مرير ، وكان سخطي قد جعلني أسرع الخطى على غير وعي مني ، فكان كازيمير يجد مشقة في متابعتي ، ولاحظت أنه غارق في عرقه ، فمددت له يدي فاستبقاها في يده ، وراح يعرج إلى جانبي ، بينما أبطأتُ أنا من مشيتي .

- هل الرسالة رسالتك؟

فأجاب من فوره :

- أوه ! كلا.

ولكن عندما تماديت في أسئلتي أدركت قلة معلوماته ، ولا شك في أنه لاحظ دهشتي ، فأضاف قوله:

-أقرأ كثيرًا.

قال كمسكين يقول:أنا أملك ثيابا أخرى!

- وماذا تحب أن تقرأ ؟

- كتب الرحلات.

في نظرة تحدٍّ مسكونة بالثقة بدلا من الحيرة .. قال:

- سافر القس إلى الصين ، هل تعرف ذلك؟

كانت لكنة تكشف عن إعجاب بأستاذه ، واحترام زائد له.

بلغنا المكان الذي أسمته مدام فلوش « المحجز » ، فوجدته مكانا مهجورا منذ زمن طويل ، أشبه بمغارة تحف بها أحراش تحجبك عن الأنظار . فجلسنا فوق حجر فاتر بتأثير حرارة الشمس التي كانت قد شرعت في المغيب ، وكانت الحديقة تنتهي عند هذا المكان دون أن يحدها سياج أو جدار ، وكنا قد مررنا يسارا بطريق منحدر بانحراف يقطع حاجزًا صغيرًا . وكان انحدار الطريق من الشدة بحيث كان حماية طبيعية للحديقة .

سألت كازيمير :

- وأنت يا كازيمير ، هل سبق وأن قمت برحلات ؟

لم يجب ، وطأطأ رأسه .. كان الوادي غارقا في الظلام تحت أقدامنا، وكانت الشمس تحف بالتل الذي يحول دون استرسال الطبيعة أمامنا . كانت توجد أشجار كستناء وبلوط تعلو كتلًا جيريًّا صغيرًا انتشرت فيه أوكار الأرانب . كان المنظر رومانسيًّا ويتميز عن سائر المنطقة المتسمة بالرتابة .

وفجأة صاح كازيمير :

- انظر إلى الأرانب .

وبعد برهة ، أضاف وهو يشير بأصبعه إلى الأشجار :

- ذات يوم ، صعدت بصحبة سيدي القس . وعند عودتنا ، مررنا ببركة تغطيها النباتات المائية ، فوعدت كازيمير بأن أعد له سنارة لكي أدربه على صيد الضفادع . هذه السهرة الأولى لم تختلف عما تلاها ، وان لم تمتد بعد التاسعة ، ولا حتى عما سبقها .. لأن أصحاب الدار كانوا يراعون مبدأ عدم الإسراف . في أثناء العشاء نشعل النار في الموقد ، وكان يوجد مصباح كبير على طرف منضدة من الخشب المطعم ، يضيء القطاع الذي يتنقل فيه كل من البارون والقس ، كذلك كان هذا المصباح يضيء المائدة الصغيرة المستديرة التي كانت النساء يلعبن عليها لعبة الورق . وبدأت مدام دي سان - أوريول الحديث فقالت :

- السيد لاكاز الذي اعتاد لهو باريس ومسراته ، سيجد ولا شك في لهونا شيئا من الخمول .

كان السيد فلوش يجلس في مقعد وثير في أحد أركان المدفأة ، بين النوم واليقظة . أما كازيمير ، فقد كان يسند مرفقيه إلى المنضدة ، واضعا رأسه بين يديه ، وقد تدلت شفته السفلى ، وسال منها اللعاب . وعلى هذه الحال ، كان يقرأ في كتاب « جولة حول العالم » . تظاهرت

مراعاة للياقة والذوق بالاهتمام البالغ بلعبة النساء . وكان من الممكن أن يتم اللعب بالاستغناء عن أحد اللاعبين الأربعة كما يحدث في لعبة « الوست » إلا إنه من الأفضل أن تؤدى بأربعة لاعبين . ولذلك فما إن اقترحت الاشتراك في اللعب ، حتى سارعت مدام دي سان - أوريول بقبولي زميلًا لها . وفي الأمسيات الأولى تمكن الفريق المنافس من هزيمتنا ، فسعدت مدام فلوش ، وكانت بعد كل فوز تربت على ذراعي بيدها النحيلة المكسوة بقفاز بلا أصابع . وكان يسود اللعب الكثير من حركات التهور والجرأة وأعمال المكر والدهاء والتفنن والمهارة ، وكانت الآنسة أوليمب متريثة في لعبها ومتروية .

وفي بداية كل دور كنا نحدد النقاط اللازمة لتحقيق الفوز ، وبعد ذلك كان كل لاعب يقامر ويزايد حسبما يكون تحت يده من أوراق ، مما يتيح فرصة للتغرير والإيهام . وكانت مدام دي سان - أوريول تغامر في تهور وجرأة وقد لمعت عيناها ، واحمرت وجنتاها وارتعد ذقنها ، وعندما كانت تجد بين يديها أوراقًا رابحة ، كانت تركلني بقدميها من تحت المنضدة ، وكانت الآنسة أوليمب تحاول أن تصمد أمامها ، ولكنها لا تلبث أن ترتبك عندما تسمع صوت العجوز الحاد يصيح فجأة:

- فيردور ، أنت تكذبين .

عند انتهاء الـدور الأول أخرجـت مـدام فلـوش سـاعتها ، وكـأن الوقت قد حان ، ثم نادت قائلة:

- كازيمير ، هيا ، حان الوقت.

فيحاول الصبي في مشقة أن يقاوم نعاسه وينهض ، ويقدم للرجـال يدا مسترخية للتحية والسلام ، ويحني جبينه للنساء ليتلقـى قـبلاتهن ، ثم يخرج وهو يتعثر في مشيته .

وعندما كانت مدام دي سان – أوريول تدعونا لجولة الثأر ، يكون أول دور على وشك الانتهاء. كان السيد فلـوش يأخـذ أحيانـا مكـان صـهره ، ولم يكـن الـسيد فلـوش ولا القـس يعلنـان عـن ألعـابهما ، ولا سمع لهما سوى صوت النرد داخل القرطاس ، أو فـوق المنـضدة. أما السيد دي سان - أوريول فكان يناجي نفسه في مقعـده الـوثير، أو يغمغم بصوت منخفض ، الـشظايا ، فتهـب الآنـسة فـيردور وتـؤدي فوق البساط ما كانت مدام دي سان - أوريول تسميه برقصة الشظايا.

كان السيد دي سان أوريـول يـترك البـارون والقـس في تنافـسهما ولا يغـادر مقعـده الـوثير، وكنـت وأنـا في مكـاني أسـتطيع أن أراه ، لا يكون نائما كما يبدو ، وإنما هازًّا رأسـه في الظـلام . وفي أول أمـسيته حدث أن توهج اللهب فأضاء وجهه ، فتبينت أنه كان يبكي .

وعندما كان اللعب ينتهي في التاسعة والربع ، كانت مدام فلوش تطفئ المصباح ، وتقوم الآنسة فيردور بإشعال شمعتين تثبتهما على طرف طاولة اللعب .

وكانت مدام دي سان - ، أوريول وهي تضرب زوجها على كتفه بالمروحة توصي القس قائلة:

- أيها القس ، لا تجعله يسرف في السهر.

اعتقدت منذ الليلة الأولى أنه من دواعي اللياقة تلبية دعوة النساء تاركًا اللاعبين لتنافسهما ، والسيد فلوش مع امرأته .. وكان آخر من يصعد منا. وفي الدهليز حمل كل منا شمعدانًا . وقامت النساء بتحيتي كما يفعلن في الصباح . كنت أدخل حجرتي فلا ألبث أن أسمع الآخرين وهم يصعدون . ثم سرعان ما يطبق الصمت ، إلا أن النور يظل يتسرب من تحت الأبواب . فإذا اضطررت للخروج إلى الممر، فقد أصادف مدام فلوش ، أو الآنسة فيردور يفرغان من عمل ما. وبعد ذلك يظن المرء أن كل الأضواء أطفأت ، ولكنه كان يرى طاقة من الزجاج تستمد نورها من ضوء الدهليز ، ولا تفضي إليه ، وتدخل مدام دي سان - أوريول في صدرها خيال ظل وهي ترتق بعض الثياب .

4

يـومي الثـاني في الكـارفورش كـان شـبيها بـاليوم الأول ، بشـكل واضـح ، سـاعة بساعة ، إلا أن الفضول الذي كان يدفعني إلى الاطلاع على حياة أهل البيت كان قد زال تماما . وكـان ثمة رذاذ رقيق يملأ الجو منذ الصباح . فلما استحالت النزهـة ، وكـان حديث النساء يخلو من الدفء والمعنى ، ومع الوقت ، شغلت ساعات النهار كلها في العمل . لم أكد أتبادل مع القس بعض العبارات ، وكـان ذلك بعد الغذاء ، حيث دعاني إلى تدخين سيجارة على بعـد خطـوات من حجرة الجلوس في مكان يشبه مستودعا كان يطلق عليه أهل الدار تعظيما التويشة ، وكانوا يضعون فيه مقاعد الحديقـة وكراسـيها طـوال فصل الشتاء الرديء .

وعندما طرقت موضوع تعليم الطفل في شيء من الحدة قال:

- ولكني يا سيدي ، أستهدف شيئًا آخر من تفتـيح مـدارك كـازيمير، بكل ما أملك من علوم متواضعة ، وأنـا لم أعـدل عـن هـدفي في هـذا إلا مرغما . هل كنت تؤيدني، وهـو يعـرج هكـذا ، لـو فكـرت في أن أعلمـه الرقص على الحبل؟ سرعان ما وجدت أن من واجبي أن أحدَّ مـن آمـالي. وإذا كان يشغل نفسه معي بـابن رشـد ، فلأننـي أقـوم ببحـث في فلـسفة أرسطو ، ففضلت أن أشركه معي في هذا العمل بدلًا من أن أتهجـى معـه

في كتاب من كتب النحو . وسواء أكان هـذا أم ذاك ، فـالمهم هـو إشـغال كازيمير ثـلاث سـاعات أو أربـع يوميًّـا ، هـل كـان بوسـعي أن أتجنـب الشعور بالخطأ لو أنه أضاع مـن وقتـي هـذه الـساعات، دون أن يـستفيد هو؟ كفى نقاشًا في هذا الموضوع ، أعتقد .. بعـد ذلـك ألقـى سـيجارته ، وكان قد تركها حتى انطفأت ، ونهض ليعود إلى حجرة الجلوس.

منعتني رداءة الجو مـن الخـروج مـع كـازيمير ، فاضـطررنا إلى أن نرجئ لليوم التالي ما كنا قد نوينا عليه في الصيد . ولكنـي أمـام خيبـه آمال الصبي ، حاولت أن أقدم وسيلة أقوى للتسلية . كنت قد عثـرت على رقعة للشطرنج ، وبدأت السهرة مثل سابقتها تماما ، غـير أننـي لم أعد أنصت أو أنظر إلى شيء ، فكان يجثم على صدري شيء من الضيق لا أدري كنهه.

ما إن انتهينا من تناول العشاء ، حتى هبت ريح عاصفة ، فأوقفـت الآنسة فيردور اللعب مرتين ، وصعدت إلى الحجرات العليا لـترى مـا إذا كان المطر سيتسرب إليها. واضطررنا إلى لعب دور الثأر من دونها ، إلا أن اللعب كان يخلو من الإثارة .

كان السيد فلـوش جالـسًا في مقعـد وثـير مـنخفض بـالقرب مـن المدفأة، يهدهده صوت المطر الهاطل ، فينام نومًا عميقًا . وكان البارون جالسًا أمامه في مقعده يشكو ويتألم من الروماتيزم.

ولما لم يجد القس منافسًا يلاعبه، جعل يردد دعوته للبارون :

- سيضيع عليك دور من النرد.

ولما لم يصل معه إلى نتيجة ، انصرف مصطحبًا كازيمير ليرقده في فراشه ، وعندما وجدت نفسي وحيدًا في ذلك المساء داخل غرفتي ، تملكني قلق لا يرحم استولى على روحي وجسدي ، وإذا بضيفي يتملكه الخوف . كان ثمة جدار من الأنهار يفصل بيني وبين بقية العالم، فإذا بي فريسة كابوس مزعج ، بعيدًا عن كل عاطفة ، بعيدًا عن الحياة ، بين مخلوقات غريبة لا تكاد تكون من البشر . جمدت قلوبها وبهتت وجوهها ، وكفت قلوبها عن الخفقان منذ بعيد . فتحت حقيبة السفر ، وأخرجت دليل القطارات ، وأخذت أبحث عن قطار ، نهارًا أو ليلًا ، ليحملني بعيدًا .. إني أختنق هنا.

عندما استيقظت في اليوم التالي ، لم أكن أقل تصميما ، إلا إني وجدتني منافيًا لقواعد الذوق واللياقة ، أن أترك المضيفين دون أن أقدم عذرا لسبب قطع إقامتي .. أو لأتهور وأذكر لهم إنني سأتأخر أسبوعًا على الأقل عن الكارفورش !

لقد وجدتها ! سأقول لهم إن أنباء سيئة تستدعيني إلى باريس . ولحسن الحظ ، كنت قد تركت عنواني في باريس قبل المجيء، فكان من الذوق أن يرسل بريدي كله إلى الكارفورش . قلت في نفسي إنها حقّا معجزة إذا لم يصل حتى اليوم أي خطاب أستطيع استغلاله في براعة وحرفة . علقت أملي بوصول ساعي البريد.

كان يأتي بعد الظهر بقليل ، عندما نفرغ من غذائنا- كنا لا نغادر المائدة قبل أن تأتي ديلفين حاملة إلى مدام فلوش رزمة خفيفة من

الخطابات والمطبوعات فتتولى توزيعها على الحاضرين . ولسوء الحظ حدث في ذلك اليوم ، أن كان القس سانتال مدعوًّا لتناول الغذاء عند عمدة بلدة ليفيك ، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ، جاء ليستأذن من مدام فلوش ومني ، ولم أدرك أنه كان يسلبني الجواد والعربة.

وعلى الغذاء ، قمت بأداء الدور الذي أعددت له ، فدمدمت وأنا أفض أحد المظاريف التي قدمتها لي مدام فلوش :

- يا الله ! يالها من مضايقة !

ولما لم يلتفت أحد من أهل الدار إلى صيحتي خشية إحراجي ، عاودت رافعًا صوتي ومتصنعًا الدهشة والضيق ، بينما عيناي تجولان بين سطور رسالة لا أهمية لها:

- وا أسفاه!

وأخيرًا تجرأت مدام فلوش وسألتني بلهجة يشوبها الحياء:

- ما هذا النبأ السيئ يا سيدي العزيز!

أجبت من فوري:

- أوه ! لا شيء. ولكني للأسف أن يتحتم عليَّ أن أعود إلى باريس فورًا ، وهذا ما يكدرني.

عمت الدهشة كل الجالسين إلى المائدة ، فجاوزت ما كنت أتوقع حتى احمر وجهي خجلًا، وتجلت هذه الدهشة بداية في وجوم شامل قطعه السيد فلوش في صوت تشوبه الرجفة:

- صحيح هذا يا صديقي العزيز؟ ولكن عملك ! ولكن.. ولم يستطع أن يكمل ، ولم أجد ما أجيب به ولا ما أقوله ، بل انتابني شعور طفيف بالتأثر . وكانت عيناي مسلطتين على قمرة رأس كازيمير، فرأيته وقد دس أنفه في الطبق ، وجعل يقطع تفاحة ، أما الآنسة فيردور فكان وجهها قد احمر قانيا من الغيظ.

وإذا بمدام فلوش تقول بصوت منخفض:

- أعتقد أن ما ينافي الذوق يا سيدي أن نطلب منك البقاء.

فقالت له مدام دي سان - أوريول بحدة:

- لما يقدمه الكارفورش من ألوان اللهو و المتعة!

فحاولت الاعتراض قائلا:

- أوه يا سيدتي ، ثقي تماما أن ما من شيء ...

غير أن البارونة ، دون أن تنصت لقولي ، صرخت بأعلى صوتها في أذن زوجها.. كان يجلس إلى جوارها:

- السيد لاكاز يريد أن يرحل عنا.

فقال الأصم وهو يبتسم لي:

- عظيم ! عظيم! ما أكثر سروري لذلك.

عندئذٍ توجهت مدام فلوش بالحديث إلى الآنسة فيردور:

- كيف سنتصرف .. الجواد مع القس؟

تراجعت قليلا وقالت :

- المهم أن أكون في باريس صباح غد .. وإذا لزم الأمر ، فإن قطار الليل يكفي.

فقالت مدام فلوش:

– فلتذهب يا جراسيان فورا لترى إذا كان من الممكن أن نستخدم جواد آل بوليني ، وأخبرهم أن عليك أن تنقل شخصًا يريد أن يستقل قطار الساعة.. ثم قالت وهي تلتفت نحوي:

– هل يكفي قطار الساعة السابعة؟

– أوه ! سيدتي، أنا آسف إذ أُسببُ لكم كل هذه المضايقات.

انتهى الغذاء في سكون ، وما أن فرغنا منه ، حتى صحبني السيد فلوش وخرجنا ، وعندما أصبحنا وحدنا في الممر الذي يؤدي إلى المكتبة ، قال:

– سيدي العزيز ، صديقي العزيز ، لا أستطيع أن أصدق ، ولكنك لا تزال في حاجة إلى معرفة الكثير . هل من الممكن أن يحدث هذا ؟ يا ها من مضايقة ! يا لها من مضايقة فظيعة ! كنت أنتظر أن تنتهي من المرحلة الأولى من البحث ، لأضع تحت يدك أوراقًا أخرى أخرجتها مساء أمس ، أعترف لك أني كنت أعتمد على هذه الأوراق لأثير اهتمامك من جديد ، وأستبقيك مدة أطول ، فلا بد من إطْلاعك الآن عليها، تعال معي– لا يزال لديك الوقت حتى المساء ؛ لأني لا أجرؤ على طلب العون مرة أخرى ، أليس كذلك؟

أمام ضيق وضجر الكهل ، أحسست بالخجل من تصرفي ، وكنت قد أضنيت نفسي في العمل طوال نهار أمس وصباح اليوم ، بحيث لم

يتوافر من الوقت إلا ما يتيح أن ألقي نظرة عابرة على الأوراق الأولى التي كان السيد فلوش قد أعطاني إياها . ولكن ما إن صعدنا إلى خلوته ، حتى بادر بفتح أحد الأدراج وأخرج من داخله في حركة غامضة لفافة يغلفها نسيج من قماش يثبته خيط رفيع، وتحت الخيط دست بطاقة على هيئة قائمة بالأوراق في الداخل ومصادرها، فقال:

- خذ اللفافة كلها ، وليست كل ما تحتويه بالطبع من أوراق هامة ولكنك تستطيع أن تستخرج من بينها ما يهمك بسرعة.

وبينما كان يفتح بعض الأدراج الأخرى ، ويغلقها ويتظاهر بالانشغال ، نزلت إلى المكتبة حاملًا حزمة من الأوراق التي فضضتها فوق المنضدة الكبيرة .

كانت بعض الأوراق فعلا تتصل ببحثي ، ولكنها كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن ، وكان أغلبها مكتوبا بخط السيد فلوش نفسه ومتصلا بحياة ماسيون .. ولذلك فلم تكن تعنيني في كثير.

أصحيح أن فلوش المسكين كان يعتمد على هذه الأوراق ليستبقيني؟

فنظرت إليه ، كان في ذلك الوقت قد غار في مقعده وأمسك دبوسا يفتح به في دقة وصبر ثقوب وعاء صغير لصب السندروسي. وما إن فرغ من هذه العملية ، حتى رفع نظره فالتقى بنظري . وإذا بابتسامة ودية تغيّر وجهه فنهضت لكي أحادثه ، واتكأت على ذراعيّ مقعده في مواجهة جسمه الضئيل ، وقلت أخاطبه:

- سيدي فلوش ، لماذا لا تـأتي إلى بـاريس ؟ إنـه ليـسرنا أن نلقـاك هناك.

- في مثل عمري ، يكون الانتقال عسيرا أو باهظ التكاليف .

- هل تأسف على حياة المدينة؟

فقال وهو يرفع يديه:

- آه ! كنت أتوقـع أن يكـون أسـفي عليهـا أكـبر . إن الوحـدة في الريف ، تبدو قاسية لمن يحب الحديث ، ولكن سرعان ما يعتادها .

أنت إذن لم تأت للإقامة في الكارفورش عن ميل أو رغبة؟

قام من مقعدة ونهض واقفا ، ثم وضع يده فوق كمي في ألفة وقال:

- كان لي في المعهد بعض الزملاء الذين أعتز بهم ، ومنهم أسـتاذك ألبير دينوس، وأعتقد أني كنت على وشك أن أشغل مكانا بينهم .

لاح لي أنـه يريـد أن يفـيض في الحـديث ، ومـع كـل وقفـة كنـت لا أجرؤ على سؤاله مباشرة ، وقلت:

- هل هي مدام فلوش التي كان يستهويها الريف إلى هذا الحد؟

- كلا، ومع ذلك فقد جئت إلى الريف من أجلـك، أمـا هـي فقـد جذبها إليه طارئ عائلي بسيط .

كان قد هبط إلى القاعدة الكـبرى ، فلمـح اللفافـة التـي كنـت قـد أعدت ربطها ، فقال لي بأسى:

- آه ! اطلعت على كل شيء، وربما وجدت بينها شيئا يفيدك.. وماذا كنت تريد ؟ أنا ألتقط أقل الفتات ..

في بعض الأحيان أقول لنفسي : إني أضيّع وقتي في جمع التافه من الأشياء.

ولكن لابد من وجود رجال مثلي ليوفروا على من كان مثلك القيام بهذه الأعمال البسيطة التي يفيدون منها فائدة عظيمة . وعندما أقرأ رسالتك سأشعر بالسرور عندما أجد تعبي قد حقق لك ولو جزءًا من الفائدة.

وإذا بالجرس يدعونا لوجبة العصر.

كنت أقول لنفسي : ما السبيل إلى معرفة ذلك «الطارئ العائلي البسيط » الذي كان وحده كافيا لإقناع هذين العجوزين ؟ هل يعرفه القس؟

فبدلًا من مناصبته العداء ، كان ينبغي أن أستميله .. لا يهم ، فات الأوان .. ولا يمنع ذلك من أن السيد فلوش رجل كريم النفس ، وسأظل أحتفظ له بأعطر ذكرى ..

وصلنا إلى حجرة الطعام .. قالت مدام فلوش:

- كازيمير لا يجرؤ على طلبك للخروج معه في جولة قصيرة في الحديقة، أنا أعرف أنه شديد الرغبة في ذلك ، ولكن الوقت قد لا يسعفه .

كان الصبي يغرق وجهه في إناء من اللبن ، فرفع هامته وهـو بـادي الابتهاج، فقلت:

- كنت على وشك أن أقترح عليه أن يصحبني ، فقـد انتهيـت مـن عملي وسأظل بلا مشاغل حتى يحين وقت الرحيل . ولحسن الحظ كان المطر قد كف عن الهطول .

صحبت الصبي إلى الحديقة .

كان الصبي يمسك بإحدى يدي بين يديه ، وعند أول منعطف رفع يدي إلى وجهه الملتهب ، وأخذ يضغط عليها طويلًا ، وقال:

- أخبروني أنك ستمكث ثمانية أيام.

- يا صغيري العزيز ، لا أستطيع أن أبقى أطول من ذلك.

-- مللت عشرتنا ..!

- كلا ، كان لابد لي من الرحيل.

- إلى أين؟

- إلى باريس ، وسوف أعود.

وما كدت أنطق بهذه العبارة حتى نظر إليَّ بقلق ولهفة:

- صحيح؟ هل تعد بذلك؟

كان استفسار الصبي يتضمن كثيرًا من الثقة ، فلم تواتني الشجاعة للتراجع ، وقلت :

- هل تحب أن أكتب لك هذا على ورقة صغيرة تحتفظ بها؟

- أوه ! أجل!

قال وهو يقبّل يدي بشدة ويقفز معبّرا عن فرحته في هوس وجنون:

- هل تعرف ما يحق لنا أن نفعله الآن ، بدلًا من الذهاب لصيد الأسماك ؟ .. جدير بنا أن نقوم بقطف بعض الزهور لنقدم منها لعمتك ، ونذهب إليها حاملين باقة ضخمة نفاجئها بها في حجرتها .

كنت قد نويت ألا أغادر الكارفورش قبل أن أزور حجرة إحدى العجوزين ، ولما كانتا تتجولان بلا انقطاع بين أرجاء الدار، كان من الجائز جدا أن تفاجئني إحداهما في زيارتي المتطفلة ، فكنت أعتمد على الغلام في إيجاد سبب لحضوري ، فإذا كان دخولي إثر الصبي إلى حجرة جدته أو خالته لا يبدو أمرًا طبيعيا ، فإنه بفضل باقة الزهور قد أستطيع في حالة المفاجأة أن أبرر موقفي .

غير أن قطف الزهور في الكارفورش لم يكن عملية بسيطة كما كنت أعتقد ، فقد كان جراسيان يلاحظ الحديقة في تشدد وصرامة ، ولم يكن يكتفي بإرشاد إلى الزهور التي يمكن قطفها ، بل كان يتدخل أيضا في تحديد الطريقة التي يتم بها قطف الزهور ، فلا بد من مراعاة الدقة والحذر ، ولا بد من الحيطة كل الحيطة ! ذلك ما بيّنه لي كازيمير . اقتادنا جراسيان إلى حد من زهور الداليا اللائقة ، كان من الممكن أن نقطف منها عددا من الباقات دون إتلاف زهرة .

- من أعلى الغصن يا سيد كازيمير ، كم مرة ينبغي أن أكرر هذا ؟

اقطفْ دائما من أعلى الغصن .

صحت بعد أن نفد صبري:

- نحن في نهاية الموسم ، فلا ضرورة لذلك الآن .

فأجاب مهمهما : ضرورة ذلك قائمة في كل وقت ، وما من موسم يحبذ العمل السيئ . أنا أمقت المتحذلقين الذين لا يتحدثون إلا بالحكمة والمثل..

كان السكون الذي يسود في حجرة الخالة أشبه بسكون المعبد .. وكانت مصاريع النوافذ مغلقة ، وكان يوجد بالقرب من الفراش مصلى من خشب الموجنا المبطن بالمخمل الأحمر الفائر ، يعلوه صليب من العاج والأبنوس يغطي نصفه غصن رفيع من البقس متعلق بشريط وردي ، مثبت تحت إحدى إبطي الصليب .. كل شيء كان يوحي بالتعبد ، نسيت ما جئت من أجله ، ونسيت الفضول الأجوف الذي جذبني إلى هذا المكان ، فتركت كازيمير يرتب الزهور كما يحلو له فوق منضدة صغيرة ، وأصبحت لا أنظر إلى شيء في الحجرة ، وكنت أحدث نفسي قائلًا : «هنا فوق هذا الفراش ، سرعان ما ستنطفئ شمعة مدام فلوش العجوز ، بعيدًا عن أعاصير الحياة ، أيها الشراع الذي يهفو إلى العاصفة .. ما أهدأ هذا المرفأ !

كان كازيمير في هذه الأثناء قد ملّ ترتيب الزهور ، فقد كانت أغصان الداليا الثقيلة قد غلبته على أمره ، وإذا بالباقة كلها تهوي على الأرض . وأخيرًا قال لي:

- هلا ساعدتني؟

وبينما كنت آخذ مكانه ، أسرع إلى الطرف الآخر من الحجـرة نحـو خزانة فتحها وهو يقول:

- سأعد لك الورقة التي تدوّن فيها العودة إلينا.

فعقّبت قائلا:

- هو ذاك ، هو ذاك ، أسرع ، فقد تغضب خالتك لو رأتـك تنقـب في خزانتها .

- أوه ! خالتي مشغولة في المطبخ ، ولا تزجرني مطلقا .

وراح يكتب على إحدى أوراق الخطابات بكل دقة وعناية .

- والآن تعال وقّع .

فاقتربت وقلت ضاحكًا:

- ولكنك يا كازيمير ما كان ينبغي أن توقّع باسمك أنت !

ما من شك في أن الصبي، رغبـة منـه في إضـفاء الأهميـة عـلى هـذا التعهد..

اعتقد أن من الأفضل أن يوقّع باسمه أسفل الورقة التي قرأت فيها:

«يتعهد السيد لا كاز بـالعودة إلى الكـارفورش في العـام القـادم .. كازيمير دي سانْ - أوريول ».

مكث برهة مرتبكا من ملاحظتي وضحكي . كان الصبي قد فعل ذلك مدفوعا بكل قلبه ، فهل كنت أهزأ به إذًا ؟! كان على وشك البكاء!

- نهض ، وعندما وقّعتُ على الورقة ، قفز فرحا، وانهال على يدي لثما وتقبيلا . هممت بالانصراف ، فجذبني من كمي وهو مائل على الخزانة:

- سأريك شيئا.

قال وهو يصلح زينكاف (قفل) الخزانة ويسحب درجا كان يعرف طريقة فتحه ..

وجعل ينقب بين شرائط وإيصالات ، ثم قدم لي صورة صغيرة داخل إطار ، وقال :

- انظر . اقتربت من النافذة ..

- ما هذه الحكاية التي وقع فيها البطل في غرام الأميرة بمجرد أن رأى صورتها ، لاشك أن هذه هي صورتها؟

لا أفهم في التصوير، ولا أهتم كثير بهذا الفن ، إلا أنه من المؤكد أن خبيرًا في التصوير يستطيع أن يتبين الصنعة في هذه الصورة ، فالشخصية لا تكاد تظهر من فرط ما في الصورة من جمال وروعة ـ على أن هذا الجمال الطاهر كان من النوع الذي لا يمكن للناظر أن ينساه ولا أهمية عندي ، لمحاسن التصوير أو عيوبه . فالمرأة الشابة التي كانت أمامي لم أكن أرى منها سوى جانب من وجهها .. كانت وجنتها تختفي تقريبا خلف خصلة ثقيلة سوداء ، وبدت عينها ناعسة حالمة في حزن ، ورأيت ثغرها منفرجًا كأنما يطلق الزفرات ، وجيدها

دقيقًا أشبه بغصن الورد - كانت هذه المرأة ذات حسن فتّان وجمال ملائكي ، فلم أعد وأنا أتأمل أعي شيئًا عن المكان أو الزمان .. وكان كازيمير قد ابتعد عني ليكمل ترتيب الزهور فعاد ومال نحوي قائلًا :

- هذه أمي إنها جميلة .. أليست كذلك؟!

شعرت أمام الصبي بالحرج ؛ لأني وجدت أمه على هذا القدر من الجمال !

- أين هي الآن ؟

- لست أدري !

- لماذا لا تعيش هنا ؟

- تملّ الإقامة هنا ؟

- وأبوك ؟!

اضطرب بعض الشيء ، وقال وهو يطأطئ الرأس كأنما يشعر بالخجل :

- أبي مات .

كانت أسئلتي تضايقه ، ولكني كنت قد صممت على التمادي فيها!

- هل تجيء أمك لزيارتك أحيانا ؟

فأجاب مؤكدًا ، وهو يرفع هامته فجأة :

- أوه ! أجل كثيرًا ما تجيء .. ثم أضاف وقد خفت صوته بعض الشيء :



- تجيء وتتحدث مع خالتي .

- ولكنها تتحدث معك أيضا !!

- أوه! معي أنا .. أنا لا أعرف كيف أتحدث معها ، ثم إنها تجيء وأنا نائم ..

- نائم !

- نعم تجيء ليلًا ..

ثم استسلم لثقته واطمئنانه .. كان قد أمسك بيدي عندما وضعت الصورة .. وأضاف في حنان ، كأنها يعهد إليَّ بسر :

- آخر مرة جاءت وقبلتني في فراشي .

- أو لا تقبلك عادة ؟

- بلى تقبلني كثيرًا ..

- إذًا لماذا تقول « آخر مرة » ؟

- لأنها كانت تبكي ..

- هل جاءت مع خالتك ؟

- كلا ، بل دخلت بمفردها في ظلمة الليل ، وكانت تعتقد أني نائم!

- هل أيقظتك ؟

- أوه ! لم أكن نائما ، بل كنت في انتظارها ..

- كنت تعلم إذًا بوجودها ..

طأطأ رأسه مرة أخرى دون أن يجيب فسألته بإلحاح :

- كيف عرفت بوجودها ؟ وفي ظلمة الليل كيف عرفت أنها تبكي؟

- أوه ! شعرت بذلك ..

- أولم تطلب منها البقاء معك ؟

- أوه ! بلى وكانت مائلة على الفراش فكنت أمسك بها من شعرها..

- وماذا كانت تقول ؟

- كانت تضحك ، وكانت تقول إني سأنكش شعرها ، وإنها لابد وأن تنصرف .

- ألا تحبك إذًا ؟

- أوه ! بلى تحبني كثيرا ..

صاح فجأة مبتعدا عني ، وقد التهب وجهه في نبرة تنم عن الوله والحب ، حتى خجلت من سؤالي ؛ وإذا بصوت مدام فلوش يدوي عند سطح السلم مناديا :

- كازيمير ، كازيمير ! اذهب إلى السيد لاكاز وأخبره بأن الوقت قد حان ليستعد للسفر ؛ فالعربة ستكون هنا بعد نصف ساعة . اندفعت ونزلت السلم مسرعا ولحقت بالعجوز في الدهليز ، سألتها :

- مدام فلوش ! هل يمكن أن أكلف أحدا بحمل برقية ؟ لقد وجدت طريقة تتيح لي على ما أعتقد أن أبقى بينكم بضعة أيام أخر .. فتناولت كلتا يدي بين يدها :

- أوه ! حقًّا يا سيدي العزيز ؟

ولما كانت في غمار تأثرها وانفعالها لا تجد ما تقوله جعلت تكرر قولها « حقًّا » ! ثم أسرعت نحو نافذة فلوش وصاحت قائلة :

- صديقي ، صديقي (هكذا كانت تناديه) السيد لاكاز تفضل بالبقاء ، كان صوتها الضعيف يرن كما جرس متصدع ، ولكنه بلغ هدفه ، فقد رأيت النافذة تفتح والسيد فلوش يطل منها للحظة ، ثم ما إن علم بالخبر حتى قال :

- أنا نازل ! أنا نازل !

لحقت كازيمير ، وظللت بضع لحظات أتقبل التهاني من كل فرد على حدة ، وكان المشاهد يتيقن أني أحد أفراد العائلة ..

كتبتُ برقية وهمية ، وأرسلتها إلى عنوان وهمي ..

قالت مدام فلوش :

- أخشى أن أكون قد أثقلت عليك في الإلحاح أثناء الغذاء ، وأتعشم ألّا يعتبر بقاؤك هنا مضرًّا بأعمالك في باريس .

- أتعشم ذلك يا سيدتي العزيزة ، لقد رجوت أحد الأصدقاء أن يعتني بمصالحي .

كانت مدام دى سان - أوريول قد أقبلت ، وكانت تهوّي بمروحتها وهي تدور في الحجرة صائحة بصوتها الحاد :

- ياله من لطيف ! آه ! لطف فائق ... ياله من لطيف !

ثم غابت فأطبق السكون .. قبل العشاء عاد القس من بون - ليفيك ولما لم يكن يدري شيئا عن موضوع سفري لم يفاجأ ببقائي،

وقال ببشاشة:

- سيدي لاكاز أحضرت من بون - ليفيك بعض الصحف وأنا لا أهتم كثيرا بما تراه الصحف، ولكني تصورت أنك قد تكون محروما هنا من الأخبار، وأن هذه الصحف، قد تهمك .. كان يبحث في ردائه:

- آه، حملها جراسيان مع الحقيبة إلى حجرتي، انتظر لحظة فسأحضرها لك ..

- لا تفعل ذلك يا سيدي القس سأصعد لإحضارها .

صحبته حتى حجرته فدعاني للدخول، وبينما كان ينظف رداءه بفرشاة ويتهيأ للعشاء، سألته بعد تبادل بعض المجاملة :

- هل كنت تعرف أسرة سان - أوريول قبل أن تجيء إلى الكارفورش؟

- لا .

- ولا السيد فلوش ؟

- انتقلت من التبشير إلى التعليم فجأة، وكان رئيسي على صلة بالسيد فلوش، فعينني للقيام بالمهام التي أباشرها الآن، فقبل أن أجيء إلى هنا لم أكن أعرف تلميذي ولا والديه .

- أي أنك لا تعرف الطارئ الذي دفع السيد فلوش فجأة إلى مغادرة باريس منذ خمسة عشر عاما تقريبا، عندما كان على وشك أن يعين بالمعهد .

همهم قائلا :

- هذه تصاريف القدر .

- كيف ؟ معنى هذا أن السيد فلوش وزوجته يعيشان هنا على نفقة آل سان - أوريول ؟

قال وقد ضاق صدره :

- كلا ، كلا ! إن آل سان - أوريول هم الذين فقدوا كل ثروتهم ، أو معظمها ، ومع ذلك فهم يملكون قصر الكارفورش . أما آل فلوش وهم في سعة من العيش فهم يعيشون معهم ليساعدوهم ، فهم يتكفلون بنفقات البيت ، وبذلك يتيحون لآل سان - أوريول الاحتفاظ بالكارفورش . ومن المفروض أن يؤول هذا القصر فيما بعد لكازيمير ، وأعتقد أن هذا هو كل ما يأمله الصبي .

- وزوجة الابن ! أم كازيمير ليست زوجة ابن سان - أوريول بل هي ابنته .

- ولكن اسم الصبي ؟ (فتظاهر بعدم الفهم) ألا يدعى كازيمير دي سان - أو ريول ؟

فأجاب ساخرا :

- أه ! كل ما هنالك أن الآنسة دي سان - أوريول تزوجت من ابن عم لها يحمل اللقب نفسه .

- عظيم !

قلتها وقد أدركت هدفي إلى حد ما ، ولو أني ترددت في إغلاق باب المناقشة .. كان القس قد انتهى من تنظيف ردائه ، وكان يضع قدمه على حافة النافذة .. نظف حذاءه بمنديل بضربات قوية ليزيل ما علق به من أتربة .

سألته قائلا :

- وهل تعرفها ؟ .. الآنسة دي سان - أوريول ؟

رأيتها مرتين أو ثلاث مرات إلا إنها لا تجيء إلى القصر إلا مرور الكرام !

- وأين تعيش ؟

- اعتدل واقفا .. ألقى بالمنديل المترب في ركن من أركان الحجرة ، وقال :

- هو استجواب إذًا !

ثم أضاف وهو يتوجه نحو الحوض :

- لن يلبث جرس العشاء أن يدق ، وأن أكون مستعدا .

كان معنى هذا أن أنصرف عنه ، وكانت شفتاه المضمومتان تحبسان الكثير من الكلام ، ولكنهما لن يسمحا بأن يفلت منهما شيء في هذه اللحظة .

5 مضت أربعة أيام وأنا لم أزل في الكـارفورش ، وقـد خفّـت حـدة قـلقي عـما كانت عليـه في اليوم الثالث ، إلا إني كنت أكثر مللًا ، فلم أتوصل إلى جديد لا في الأحداث اليوميـة ، ولا في أحاديث أهل الدار ، فإذا بي أشعر أن فضولي إلى زوال من قلـة الـزاد . رأيت أنه يجب أن أعرض عن فكرة اكتشاف المزيد ، وتأهبـت للـسفر من جديد ؛ فقد كان كل ما حـولي يمـسك عـن تعريفـي بـما يعـرف ؛ فالأب يتظاهر بالبكم منذ أن ظهر له مـدى اهتمامـي بـما يعلـم ، وأمـا كازيمير فكما كانت تزداد ثقته بي كنت ازداد أمامه حرجـا ، فلـم أعـد أستطيع سؤاله ، ثم أني أصبحت أعلم كل ما يمكن أن يخبرني به ، وهو ليس أكثر مما أخبرني به يوم أن أطلعني على الصورة .

ومع كل فإن الصبي كان قد أخبرني باسم أمه ببراءة وطهـر ، وربـما كان من الجنون أن أبدي تأثري على هذا النحو بالصورة الجذابـة التـي كان يرجع تاريخها إلى أكثر من خمسة عشر عاما ، بل إنه حتى لو حدث أثناء إقامتي في الكارفورش أن ظهرت إيزابيل دي سان - أوريول كما اعتادت أن تظهر لما تمكنت ولا جرؤت على اعتراض سـبيلها ، ومهـما يكن الأمر فقد كان تفكـيري الـذي انـشغل بهـا فجـأة قـد كـف عـن

الشعور بالملل والرتابة ، فإذا بهذه الأيام الرهيبة تنقضي بسرعة وأفاجأ بانتهاء الأسبوع وليس هناك ما يبرر بقائي عند آل فلوش ، خاصة وأن عملي لم يعد يبرر تأخير الرحيل، ولكنى في هذا الصباح كنت أتجول في الحديقة ، وكان الخريف قد زاد من سعتها ورنين أصدائها ، فإذا بي أجدني أهتف بصوت منخفض لا يلبث أن يرتفع : إيزابيل ! وإذا بهذا الاسم الذي صدمني في البداية يكتسي بالرقة والعذوبة ويسري فيه سحر خفي .. ورأيتني أردد قائلًا : إيزابيل دي سان - أوريول ، إيزابيل ! .. تخيلت ثوبها الأبيض عند منعطف الممر يمر ويختفي عن عيني . وبين أوراق الشجر التي كانت تتغير وتتلون كان كل شعاع يذكرني بنظراتها وابتسامتها الحزينة . ولما كنت لا أزال أجهل الغرام وأفعاله تصورت نفسي عاشقا ، وطاب لي أن أكون كذلك ، فهِمْتُ في سماوات الحب طائعا وراضيا .

كم كانت الحديقة جميلة ! خاصة وهى تتهيأ في جلال الحزن الخريف المنصرم . كنت منتشيا وأنا أستنشق أريج الطحلب والأوراق الذاوية ، وكانت أشجار الكستناء الفرعاء الصهباء تجردت من أوراقها تقريبا تميل بأغصانها على الأرض حتى تمسها . كانت بعض أغصان العوسج الأرجوانية تتلألأ في المطر المنهمر والكلأ المجاور لها أخضر يانعا ، وكانت توجد بعض الأزهار الكولشيك متناثرة فوق عشب الحديقة ، وتحت ذلك في الوادي الصغير يوجد مرعى وردي اللون يلمحه المشاهد من المحجر ، كنت أجلس فيه عندما يكف المطر عن

الانهيار فوق الحجر نفسه ، الذي كنت جلست عليه مع كازيمير في اليوم الأول ، ومن يدري لعل الآنسة دي سان -أوريول تكون قد جلست عليه من قبل فتخيلت أني أجلس إلى جوارها .

كان كازيمير يرافقني كثيرا ولكني أفضّل أن أسير وحدي ، كان المطر يباغتني كل يوم وأنا في الحديقة ، فكنت أعود مبللا إلى المطبخ لأجفف ملابسي بالقرب من الموقد . لم تكن الطاهية تحبني وجراسيان كذلك ، ولم أتمكن بتلطفي ورقتي معهما أن أنتزعَ منهما ثلاث كلمات . حتى الكلب لم أتمكن من أن أجعل منه صديقا رغم مداعبتي له وتملقي إياه . كان « ترنو » يقضي معظم النهار راقدا في الموقد الواسع ، وكنت لا أكاد أقترب منه حتى يهب مزمجرًا . أما كازيمير الذي كنت أراه في الغالب جالسا على حافة المدفأة يقشر الخضراوات أو منهمكا في القراءة فكان يضرب الكلب ضربا خفيفا زاجرا إياه ؛ لأنه يسيء استقبالي . كنت أتناول الكتاب من بين يدي الصبي ، وأواصل القراءة بصوت مرتفع فيستند على ركبتي وأشعر به وقد انصرف إليَّ بسمعه وقلبه .

لكن المطر المنهمر في ذلك الصباح هطل شديدا عنيفا ، بحيث لم أتمكن من التفكير في العودة إلى القصر ، فأسرعت فلجأت بسرعة إلى اقرب ملاذ وهو المبنى المهجور في نهاية الحديقة قرب الباب الحديدي وكان منهدما فيما عدا قاعة شاسعة لا تزال أنيقة كأنها قاعة استقبال أو مكان للنزهة ، إلا أن أخشاب جدرانها المنحدرة كانت تتشقق وتتصدع لأقل صدمة .

عندما دخلت دافعا بابها الذي لم يحكم إغلاقه جاءت بعض الخفافيش خارجة مندفعة من النافذة التي خلت من زجاجها ، كنت أعتقد أن المطر لن يطول ولكني وجدت وأنا آخذ نفَسي أن السماء قد اكفهرت وأربدت تماما . وإذا بي مطوق في حصار طويل الأجل . كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ، وكان أهل الدار لا يتناولون الغذاء إلا في الثانية عشرة . وجدت أني سأنتظر حتى يدق الجرس الأول الذي ما من شك في أن صوته يصل إلى هذا المكان ، كان معي ما يلزم للكتابة ولما كان بريدي متأخرا حاولت أن أثبت لنفسي أن شغل الفكر ساعة زمن لا يقل يسرا عن شغله يوما كاملا . إلا أن خيالي كان يردني إلى .... آه ! لو كنت أعلم أنها ستظهر ذات يوم في هذا المكان لحرقت هذه الجدران بزفرات قلبي الولهان . وسرعان ما تملكني ضيق ممن تثقله العبرات ومكثت منهارًا في ركن من الحجرة فلم يكن بها مقعد للجلوس ، وإذا بي أنفجر في البكاء كطفل ضل الطريق .

إن لفظ الضيق كأضعف بالتأكيد من أن يعبر عن الأشجان المضنية التي كنت أقع فريسة لها دائما .. هذه الأشجان تستولي علينا فجأة ونحن في قمة سعادتنا ، فقبل لحظة يضحك لك كل شيء وتضحك أنت لكل شيء . وفجأة إذا بغمامة سوداء داكنة تتصاعد من أعماق النفس ، وتقف حائلا بين المتعة والحياة ، وإذا بها تكون ستارا أغبر يفصلنا عن بقية العالم .. وإذا بحرارة هذا العالم وحبه وألمه وانسجامه

لا تأتينا إلا في صورة انعكاس مجرد ، فنرى ولا نتأثر وربما أودى بنا ما نبذله من جهد يائس لاختراق هـذا الـستار الفاصـل إلى ارتكـاب أيـة جريمة ، وقد يصل الأمر بنا إلى القتل أو الانتحار ، وربما إلى الجنون .

هذا ما كان يدور بخلدي وأنا أرهف السمع للمطر المنهمر ، كنـت أحتفظ في يدي بمديـة ففتحتهـا لأبـري القلـم ، ولكـن الورقـة التـي فتحت عليها مفكرتي ظلت بيضاء ، وإذا بي أحـضر بـسن المديـة عـلى سطح الجدار المجاور محاولا نقش اسمها .. لم أفعل ذلك عن اقتنـاع ، ولكن لأني كنت أعلم أن العشاق الموهين يفعلون ذلك ، وعلى أثر كل محاولة كان الخشب البالي يتهاوى ويسقط ، وكـان كـل حـرف أنقـشه يترك وراءه ثقبا . وبلا قصد ولمجرد شغل الوقـت شرعـت في تجـريح الخشب كيفما اتفق مدفوعا بغريزة الهدم البلهاء . كان الغطـاء الخـشبي الذي كنت أحطمة يقع تحت النافذة مباشرة ، وكان إطاره منفـصلا في أعلاه بحيث كان من السهل أن يسحب الغطاء كله من أسفل إلى أعلى بين جوانبه . وهذا ما لاحظته عندما فوجئت بمديتي ترفع هذا الغطاء الخشبي في غمار النقش والتجريح .

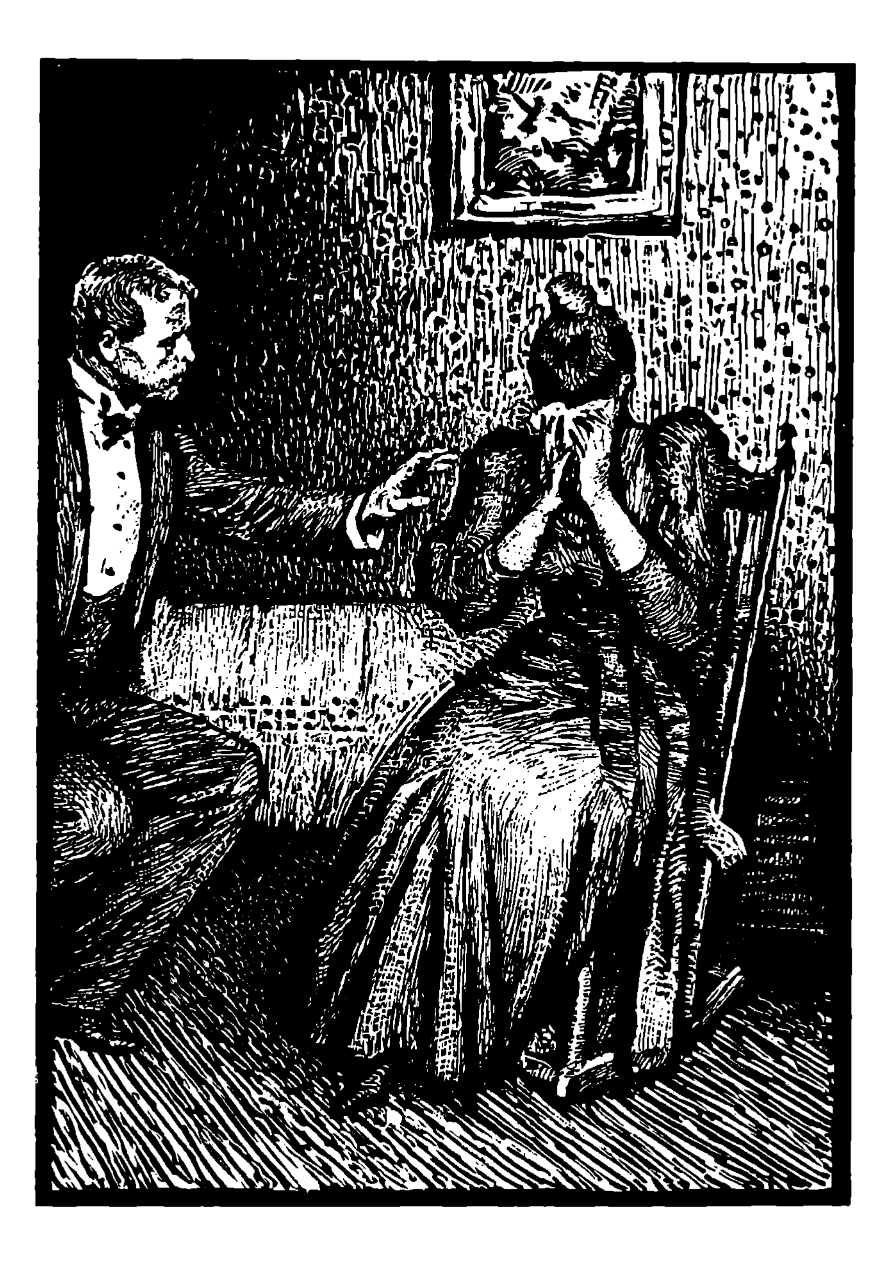
لم تمض لحظات حتى كنت قد أجهزت على تفتيت الغطـاء الخـشبي وإذا بمظروف يسقط على الأرض مـع فتـات الخـشب وكـان متـسخا عطنا اكتسب لون الجدار ، بحيث لم أدهش بداية .. كلا لم أتعجب من رؤيته فلم أجد غرابة في وجوده هنا . ولذلك لم أتأثر . ولم أحاول فضه فورا ، كان دميما مغبرا قذرا يظنه المشاهد جزءا من أنقاض . فإذا كنـت

قد تناولته فإنما كان ذلك لشغل الفراغ . وإذا كنت فضضته فإنما كان ذلك بطريقة آلية .. أخرجت منه ورقتين مكتوبتين بخط كبير باهت اللون وغير مرتب ، يكاد يكون ممسوحا في بعض الأجزاء . ماذا يفعل هنا هذا الخطاب ! نظرت إلى التوقيع فذهلت كان اسم إيزابيل مكتوبا في نهاية الورقتين .

كانت تشغل بالي حتى اللحظة .. فتوهمت لبرهة أنها تكتب الرسالة لي أنا : « حبيبي هذه آخر رسالة مني لك .. أنا أكتب هذه الكلمات على عجل ؛ لأني أعرف أني لن أتمكن هذا المساء من قول شيء لك فشفتاي وهما إلى جوارك لن تعرفا غير القبلات فاسمعني بسرعة وأنا لا أزال قادرة على الكلام ؛ أنصت إليّ .. لقاؤنا في الحادية عشرة متقدم جدًا ، فالأفضل أن يكون في الثانية عشرة . أنت تعلم أني أذوب لهفة إلى لقائك وأن الانتظار يضنيني ، ولكني لكي أسعى للقائك لابد أن ينام كل مَنْ في الدار أجل ، الثانية عشرة وليس قبل ذلك . تعال للقائي عند باب المطبخ .. سر بمحاذاة جدران بستان الخضراوات الذي يقع في منطقة مظلمة فهناك أيضا أشجار العوسج . انتظرني هناك وليس أمام الباب الحديدي ؛ لا أقول هذا لأني أخشى أن أجتاز الحديقة وحدي ، ولكن لأن الحقيبة التي أضع فيها بعض ملابسي ستكون ثقيلة للغاية بحيث لن أقوى على حملها لمدة طويلة .. أرى أنه من الأفضل أن تظل العربة في طرف الشارع الضيق ، حتى نتمكن من رؤيتها بسهولة ، وكذلك بسبب كلاب المزرعة التي من الجائز أن تنبح

وتوقظ النيام فهذا أقرب للحرص ، كلا يا صديقي فكما تعلم لم تكن لدينا وسيلة إلى اللقاء مرة أخرى ، والاتفاق على هذا كله شفاهة .. تعلم أني أعيش هنا أسيرة ، وأن العجوزين أصبحا لا يسمحان لي بالخروج ولا بالدخول .

آه أي زنزانة تلك التي أهرب منها ..سأهتم بأن آخذ معي زوجا من الأحذية لا غير أنتعله بمجرد أن تركب العربة ؛ لأن العشب في طرف الحديقة مبلل بالماء . كيف تسألني بعد ذلك عما إذا كنت ناوية ومستعدة ؟ فلتعلم يا حبيبي أني منذ شهور أتهيأ ومنذ شهور وأنا مستعدة . وها هي ذي أعوام مضت وأنا أنتظر هذه اللحظة ! وتسألني ألن أندم على ذلك .. أنت لم تفهم إذًا أني أصبحت أمقت كل من تربطهم علاقة بي وكل ما يبقيني في هذه الدار!.. أهذه حقا إيزا الرقيقة المتهيبة التي تتحدث إليك ! صديقي وحبيبي ماذا فعلت بي يا غرامي؟! أنا هنا أختنق وأفكر في العوالم الأخرى التي تفتح لي أبوابها.. أنا ظمأى..أوشكت أن أنسى إخبارك بأني لم أفلح في انتزاع فصوص الياقوت من علبتها ، لأن خالتي لم تعد تترك مفاتيحها في حجرتها ولدي سوار أمي والسلسلة المطعمة ، وخاتمان وقد يكونان بلا قيمة كبيرة ، ولكني أعتقد أن السلسلة في غاية الجمال . أما عن المال فسأبذل جهدي ولكنك أيضا تحسن صنعا لو حصلت على مبلغ منه . لك خالص دعواتي . (الثاني والعشرون من أكتوبر الموافق عيد ميلادي الثاني والعشرين وليلة خلاصي) صديقتك إيزا .



وأفكر في رهبة ماذا لو كان عليَّ أن أنسج رواية من هذه القصة الواقعية ، وفي الجهد الذي كان يتحتم عليَّ أن أبذلة في صياغة هذه الصفحات التي يستلزمها الإطناب . وفكرت بعد قراءتها وتساءلت في أمرها فانتهى بي التفكير إلى الحيرة والبلبلة . والحقيقة أني غرقت في وجوم أشبه بالوجوم الذي يستتبع صدمة عنيفة ، وعندما بلغ سمعي عبر اضطراب دمائي صوت الجرس يدق ويكرر الدق تبينت أنه صوت الجرس الثاني الذي يدعو للغذاء . فكيف لم أسمع الدقة الأولى؟ أخرجت ساعتي فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة فقفزت إلى الخارج في الحال أضم إلى قلبي تلك الرسالة ، واندفعت عاري الرأس تحت وابل المطر المنهمر .

وجدت آل فلوش قلقين لغيابي . ولما وصلت لاهثا قيل لي : إنك أيها السيد العزيز مبلل الثياب تماما .. ورفضوا الجلوس إلى المائدة قبل أن أغيّر ثيابي . فما إن عدت حتى أخذ الرجل والمرأة يسألاني في تودد فوجدتني مضطرًّا للقول بأن المطر احتجزني داخل المنزل ، وإني ظللت أنتظر عبثا مهلة ينتهي بعدها المطر المنهمر . فاعتذروا عن رداءة الجو وبشاعة الممرات ، واعتذروا عن دق الجرس الثاني قبل موعده بكثير وأن الجرس الأول دق أضعف من المعتاد .. انطلقت الآنسة فيردور لتحضر شالا ، رجاني آل فلوش أن أغطي به كتفي لأني كنت لا أزال أتصبب عرقا ، ومن الجائز أن أصاب بسوء .. كان القس في تلك الأثناء يراقبني دون أن ينطق بكلمة ، وقد ضم شفتيه بشدة حتى بدا

عابس الوجه وكنت بالغ الحساسية ، بحيث شعرت تحت وطأة نظراته بالخجل والارتباك كطفل ارتكب ذنبا . ورأيت أن من الواجب التودد إليه ؛ لأني لن أعرف شيئا بعد ذلك إلا عن طريقه ، فهو وحده الذي يستطيع أن يجلو لي ما غمض من هذا الموضوع الشائك الذي أصبحت أنجذب إليه بدافع الحب أكثر من دافع الفضول .

بعد تناول القهوة كانت السيجارة التي قدمتها للقس ذريعة للمحادثة ، فتوجهنا للتدخين في تعريشة البرتقال حتى لا نضايق البارونة . بادرني .. في لهجة ساخرة قائلا :

- كنت أعتقد انك لن تمكث هنا أكثر من ثمانية أيام !

- هذا ما كنت أنوي عمله لولا تلطف أهل الدار ..

- ووثائق السيد فلوش ؟

- استوعبتها .. ولكني وجدت سببا أدعى للانشغال .

انتظرت منه استفسارا ، ولكنه لم يقل شيئا فاستطردت قائلا وقد نفد صبري :

- لابد أنك تعرف أسرار هذا القصر وخفاياه .

جحظت عيناه وقطب جبينه وتظاهر بالبراءة والبلاهة ؛ فقلت :

- لماذا لا تقيم مدام دي سان - أوريول والدة تلميذك هنا ، فتُوزع اهتمامها بين ابنها العاجز ووالديْها المسنين ؟

ولكـي يجيـد تمثيـل دور المنـدهش ألقـى بـسيجارته ، وفـتح يديـه ووضعهما حول وجهه ، وهمهم قائلا :

- ربما كانت مشاغلها تستدعي وجودها في مكان آخر . يـا لـه مـن سؤال مغرض !!

- هل تريد سؤالا أكثر تحديدا .. ماذا فعلت السيدة أو الآنـسة دي سـان - أوريـول والـدة تلميـذك ليلـة 22 أكتـوبر ، حيـث كـان مـن المفروض أن يأتي حبيبها لاختطافها ؟

حط قبضتيه على خاصرتيه ، وقال :

- عجبا ! .. عجبا !.. يا سيدي الروائي !

كنت منساقا إلى الإفضاء له بـأسراري ، وهـو إفـضاء لا ينبغـي أن يكـون إلا لـشخص يبـادلني ودًّا بـودٍّ ؛ لأن هـذا القـس مـا إن أدرك مقصدي حتى شرع يسخر مني بطريقة لا طاقة لي بها ، فأضاف قائلا :

- ألا ترى أنك تتسرع ؟ هل لي أن أسألك بدوري كيـف توصـلت إلى هذه المعلومات ؟

- الرسالة التي كتبتها إيزابيـل دي سـان - أوريـول إلى حبيبهـا في ذلك اليوم لم يتسلمها بل تسلمتها أنا .

كان عليه أن يدرك مدى خطورتي ، ففـي تلـك اللحظـة لمـح بقعـة صغيرة على كم ردائه ، فشرع يحكهـا بطـرف ظفـره ، وبـدأ يغـيّر مـن موقفه، وقال :

- أنا معجب بهذا السلوك .. فما إن يعتقد أحدكم أنه ولد روائيا حتى يستبيح لنفسه جميع الحقوق .. لو كان غيرك مكانك لفكّر مرتين قبل أن يطّلع على رسالة ليست موجهة إليه .

- بل أرجو ألا يكون قد اطّلع عليها أصلا .

كنت أتفرس وجهه إلا أنه كان لا يزال يحك رداءه وقد أخفض عينيه:

- على كل حال لا أعتقد أن أحدا طلب منك أن تقرأها .

- هذه الرسالة وقعت بين يدي مصادفة .. كان المظروف رثّا ومتسخا وشبه ممزق ولا يحمل أي أثر لكتابة .. وعندما فتحته وجدت رسالة موجهة من آنسة دي سان - أوريول ، ولكن إلى من كانت موجهة ؟هيا أيها القس عاونني مَن كان منذ أربعة عشر عاما عشيقا للآنسة دي سان - أوريول ؟

كان القس قد وقف معتدلا فأخذ يسير طولا وعرضا في خطى قصيرة مطأطئ الرأس شابكا يديه خلف ظهره . وما إن أصبح خلف مقعدي للمرة الثانية حتى توقف .. وشعرت فجأة بيديه تستقران فوق كتفي ..

- أرني هذه الرسالة ؟

- هل ستتكلم ؟

شعرت بقبضتيه ترتجفان من اللهفة :

- آه ! لا تشترط .. أرجوك أرني هذه الرسالة فحسب ؟

- دعني أذهبْ لإحضارها .

قلتها محاولا الإفلات منه ..

- إنها معك هنا .. في حقيبتك .

كانت عيناه مركزتين على مكان الرسالة ، كما لو كانت سترتي تشف عنها ، ولعله يقوم بتفتيشي .

كان وضعي لا يسمح بالدفاع عن نفسي خاصة ضد عملاق أقوى مني ، ثم ما السبيل بعد ذلك إلى حمله على الكلام ! .. التفت فإذا بوجهه يكاد ينطبق على وجهي . كان وجهها منتفخا متورما خط جبينه عرقان ضخمان ، وأسفل عينيه جيوب بغيضة تكلفت الضحك خشية أن يفسد كل شيء بيننا ، وقلت له :

- عفوا أيها القس . أعترف أنك مثلي تعاني من الفضول .

أخلى سبيلي فنهضت في التو .. وتظاهرت بالخروج ..

- لو لم تتبع معي أساليب قطّاع الطرق لأريتك الرسالة ..

ثم قلت وأنا أمسكه من ذراعه :

- فلنقترب من قاعة الاستقبال لأتمكن من طلب النجدة ..

كنت أبذل مجهودا خارقا لأحافظ على روح الدعابة في لهجتي إلا أن قلبي كان يدق بشدة .

- خذ اقرأها أمامي .. أريد أن أرى كيف يقرأ القس رسالة غرامية. قلت ذلك وأنا أُخرج الرسالة من جيبي .

لكنه تمالك نفسه من جديد ولم يظهر أي انفعال إلا من خلال رعشة خفيفة في عضلة صغيرة على خده كان من المستحيل إخفاؤها . قرأ الرسالة ، ثم تشمم الورقة وهو يقطب حاجبيه في شدة ، وبطريقة يبدو منها أن عينيه تسخطان على أنفه ، ثم أعاد طي الرسالة وردَّها إليَّ، وقال بلهجة شبه رسمية :

- في ذلك اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر قُتِلَ الفيكونت يليز جونفريفيل في حادث أثناء قيامه بالصيد .

- انتفضت فزعا لما يقول (فسرعان ما نسج خيالي قصة مأساة مروعة) ويجب أن يعرف أنني عثرت على هذه الرسالة خلف أخشاب الدار .. وما من شك في أنه كان من المفروض أن يحضر إلى ذلك المكان ليتسلمها .

عندئذٍ أخبرني القس أن أكبر أبناء جونفريفيل ، وكانتْ ضيعتهم تجاور ضيعة آل سان - أوريول قد وجد قتيلا بجوار حاجز من الحواجز، كان فيما يبدو يريد أن يجتازه عندما أتى بحركة خرقاء فانطلق عيار من بندقيته ، ومع ذلك لم يعثر في ماسورة بندقيته على

خرطوش العيار ، ولم يتقدم أحد بأية معلومات عن الحادث .. فالشاب كان قد خرج بمفرده ، ولم يره أحد .. إلا أنه في اليوم التالي عثر المارة على كلب من كلاب الكارفورش يلعق في بركة من الدماء بالقرب من الداز .

أردف القس قائلا :

- لم أكن بعد قد حضرت إلى قصر الكارفورش ، ولكنه يبدو لي طبقا للمعلومات التي تمكنت من جمعها أن جراسيان هو الذي ارتكب الجريمة ، فليس من المستبعد أن يكون قد اكتشف ما كان بين سيدته والفيكونت من علاقات ، وربما علم كذلك بموضوع هروبها (وهو موضوع كنت أجهله أنا نفسي قبل أن أقرأ هذه الرسالة) فهو خادم عنيد شرس لا يتورع عن إتيان أي فعل في سبيل الذود عن حمى سادته .

- ولماذا لم يقبض عليه ؟

- لم يكن لأي أحد مصلحة في اتهامه ، وكان آل جونفريفيل وآل سان - أوريول يخشيان ما قد يثار من شائعات حول هذا الحادث المفجع ، فضلا عن أنه بعد بضعة شهور وضعت الآنسة دي سان - أوريول طفلًا بائسًا ، ويرجع الناس عاهة كازيمير إلى ما اتخذته أمه من تدابير بهدف إخفاء حملها ، لكن الله يعلمنا أن عقاب الآباء غالبا ما يقع على الأبناء . تعال معي إلى الدار فأنا مشوق لرؤية المكان الذي عثرت فيه على الرسالة .

كانت السماء قد عادت إلى صفائها فاتخذنا طريقنا إلى الدار معا ، وذهبنا على خير .. فقد أمسك القس بذراعي ومضينا في خطى متساوية نتحاور بلا صدام ، لكن الأمر فسد عند العودة فلا شك أن غرابة الحادث أثرت في نفس كل منا بطريقة مختلفة . أما أنا فأمام ما أظهره القس من حس التلطف في إطلاعي على المعلومات ، وأني نسيت مايمليه رداءه من احترام وهيبة كما نسيت تحفظي ، فقد وجدتني أتحدث إليه كما لو كان رجلا عاديا .. ولكن كيف دبّ الخلاف بيننا ؟! .. كنت أقول له :

- مَن ذلك الذي يحكي لنا ما فعلته الآنسة دي سان - أوريول في تلك الليلة ! فما من شك أنها لم تعلم بخبر موت الكونت إلا في الصباح ! فهل انتظرته في الحديقة ؟ وحتى متى ؟ وماذا اعتقدت عندما لم يأت ؟

كان القس يلزم الصمت تماما دون أن يتأثر لشاعريتي ، فعدت أقول:

- تصور هذه الفتاة الرقيقة وقلبها مثقل بالغرام والأسى ، ورأسها مفعم بالهوس .. إيزابيل المتيّمة !

همس القس :

- قل إيزابيل الفاجرة !

واصلت حديثي كأنما لم أسمع همسه ، ولكنـي كنـت قـد صـممت على الدفاع عنها لو عاد إلى مهاجمتها :

- فكر في كل ما كانت تعلقه من أمل وما انتابها من يأس ..

قاطعني في جفاء :

- لماذا تفكر في هذا كله ! ليس علينا أن نعرف عن الأحداث سوى ما يفيدنا ..

- ولكن الفائدة تختلف باختلاف المعلومات التي نعرفها .

- ماذا تقصد بذلك ؟

- معرفتنا السطحية بالأحـداث لا تتفـق ومعرفتنـا العميقـة التـي نستطيع فيها بعد أن نتوصل إليها ، وأن المعلومات التي تستخلصها من هذين النوعين ، من المعروف أنها لا تكون واحدة ، وأن مـن الخـير أن نتمعن الأمور ونتقصاها قبل أن نخلص إلى النتائج .

- صديقي الشاب .. اعلـم أن الميـل إلى الـتمعن والتقـصي وحـب الانتقاد هي جرثومة التمرد . إن الرجل العظيم الذي اتخذته مثالًا كان أحرى به أن يعلمك أن ...

- تقصد ذلك الذي أكتب عنه رسالتي ؟

- يالك من مناكف لحوح بمثل هذه الروح ...

- بالله عليك ألا أخبرتني يا سيدي القس ، أليس هذا الفضول نفسه هو الذي جعلك تصحبني في هذا الوقت ودفعك منذ برهة إلى مكان الرسالة ، وحدا بك إلى معرفة كل هذا الذي أخبرتني .

وكان قد أسرع خطاه وغدت لهجته قاطعة ، وجعل يضرب الأرض بعصاه زهقا وتبرما :

- أنا لا أبحث مثلك عن تفسيرات ، فما إن أعلم بالحادث حتى أقتصر على معرفته . الوقائع الخطيرة التي أخبرتك بها تعلمني إذا كانت لا تزال هناك حاجة إلى تعليم بشاعة الرذيلة التي يردينا فيها الجسد ، وفيها إدانة للطلاق ولكل ما تفتق عنه عقل الإنسان ليتجنب نتائج ما جنته يداه من أخطاء . أظن أن في هذا الكفاية .. أليس كذلك؟

- ليس في هذا الكفاية ! الواقعة لا تعنيني في شيء طالما لم أصل إلى أسبابها فمعرفة الجانب الخفي في حياه إيزابيل دي سان - أوريول والاطلاع على المسالك العطرة الشجية المعقدة ...

- حذارِ أيها الشاب بدأت تهيم بها !

- آه .. هذا ما كنت أتوقعه ! المظهر لا يكفيني الآن ، وقد اكتفى بالأقوال والإشارات .. أواثق أنت من أنك لا تسيء الحكم على هذه المرأة؟

- إنها فاجرة !

ألهب الغيظ رأسي ، ولم أتمكن من كتمانه إلا بمشقة بالغة :

- سيدي القس مثل هذه الألفاظ تدهشني عندما تخرج من فمك ، ويبدو لي أن المسيح يعلمنا أن الصفح أجمل من التنكيل .

- فارق بسيط بين التسامح والمجاملة ..

- لو قدر له أن يكون مكانك لما قضي عليها بمثل ما فعلت .

- أولا هذه الأمور لا تدري عنها شيئا ، ثم إن المعصوم من الخطايا يستطيع أن يكون أكثر تسامحا حيال الآخرين من ذلك الذي .. أعني أننا نحن العصاة ليس لنا أن ننتحل الأعذار للمعاصي .. كل ما علينا هو أن نبتعد عنها بوجوهنا في استنكار ..

- بعد أن نتشممها كما تشممت أنت عطر هذه الرسالة !

- أنت وقح !

ابتعد عن الطريق فجأة وانطلق مسرع الخطى متخذا طريقا ضيقا قريبا ، وهو يرميني على طريقة « البارتيين » بعبارة جارحة لم أميِّز منها سوى هذه الألفاظ : تعليم حديث سوربوني زنديق .

عندما التقينا على العشاء كان لا يزال عابسا ، ولكنه ما إن تركنا المائدة حتى أقبل نحوي مبتسما ، وقدم لي يدا شددت عليها وأنا أبتسم أنا الآخر .

بدت لي السهرة أكثر مللا من المعتاد . كان البارون يئن في هدوء إلى جانب النار . كان السيد فلوش والقس يـنقلان نردهما دون كـلام . وبطرف عيني رأيت كازيمير وقد دس رأسه بين يديـه .. يـسيل لعابـه ببطء فوق الكتاب فيمسحه مرارا بحركة من منديله . أما أنا فلم أهـتم بلعبة البيزيج دون أن أسبّب خسارة مروعة مخزيـة لزميلتـي . وكانـت مدام فلوش تلاحظ وتجزع لضجري ، فكانت تبذل جهدا كبـيرا لتثـير حماسة في اللعب .

– هيا يا أوليمب ! هذا دورك هل تنامين ؟

لم يكن النعاس ولكنه الموت الذي أصبحت أشعر بخدره الغامض يجمِّد أهل الدار وأنا نفسي كنت أشعر بالقلق ، بل بالضيق يطبـق عـلى صدري . أخذت أخاطب نفسي وأنـا أفكـر في إيزابيـل قـائلا : « أيهـا الربيع ، أيتها الرياح الهائلة ، أيتهـا العطـور الجذابـة ، أيتهـا الموسـيقى العذبة لن تصلي إلى هذا المكان مطلقا . ما أبشع القبر الذي أفلـت منـه وإلى أي حياة يا ترى ! انطلقت .. إنني أتخيلك هناك في ضوء المـصباح الهادئ وقد وضعت جبينك الشاحب على أناملك الرقيقة وخصلة من شعرك الفاحم تلامس معصمك وتداعبه . مـا بـال عينيـك تتطلعـان بعيدا .. وما هذا الضجر الذي يعانيه جـسمك ، وروحـك تعـبر عنـه هذه الزفرة التي لا يسمعونها ؟ ومني أنا أيـضا ودون أن أدري أفلتـت زفرة هائلة أقـرب إلى التثـاؤب أو البكـاء حتـى أن مـدام دي سـان – أوريول بماحت وهي تلقي بآخر ورقة على المنضدة :



- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب رغبة شديدة في النوم .

يا لها من امرأة مسكينة !

في تلك الليلة رأيت حلما في المنام .. لم يكن في البداية سوى تكملة للواقع ؛ فقد رأيت أنني لا أزال في حجرة الاستقبال قبل أن تنتهي لسهرة تماما إلى جوار أهل الدار ، ولكن جماعة أخذ عددها يزداد كانت تنضم إليهم ، مع أني لم أر أحدا يدخل علينا ، تعرفت على كازيمير وهو يجلس إلى المنضدة أمام إحدى الألعاب ، وكان ثمة ثلاثة أو أربعة رجال منكبين على اللعبة .. كان الموجودون يتحدثون بصوت منخفض ، بحيث لم أتمكن من تمييز عبارة واحدة مما يقولون ، ولكني فهمت أن كل شخص يخبر جاره بأمر ما يثير دهشته ، كان الاهتمام موجها إلى مكان بالقرب من كازيمير ، حيث تعرفت فجأة على إيزابيل دي سان - أوريول وهى جالسة إلى المائدة (كيف لم أراها من قبل!) كانت وحدها ترتدي ثيابا بيضاء وسط الحُلل القاتمة . لاحت لي في البداية جميلة ساحرة شبيهة بالصورة ، ولكني سرعان ما أخذت بجمود ملامحها وثبوت نظراتها ، وأدركت فجأة ما كان يهمس به القدر .

لم تكن مَنْ أمامي هي إيزابيل الحقيقية ، ولكن دمية تشبهها وضعت مكانها أثناء غياب الأصل . وعندئذٍ بدت هذه الدمية قبيحة دميمة . ضاق صدري أمام مظهر غبائها المتحذلق ، كان المشاهد يعتقد أنها ساكنة تماما ولكني وأنا أحدق النظر فيها رأيتها تميل ببطء إلى جانب ، تميل وتميل حتى كادت تسقط . فانطلقت الآنسة أوليمب من

الطرف الآخر لحجرة الاستقبال ، مالت حتى بلغت الأرض ورفعت غطاء الكرسي الوثير وملأت زنبركًا أخذ يصدر صريرا عجيبا . فإذا بالمسخة تعتدل وتحرك ذراعيها حركة آلية غريبة تثر الضحك - نهض الجميع عندما حان وقت الانصراف تاركين خلفهم إيزابيل المزيفة وحدها .. كان كل فرد من المنصرفين يحييها بانحناءة على الطريقة التركية ، فيما عدا البارون الذي اقترب منها دون مبالاة وأمسك شعرها المستعار وطبع على جبينها قبلتين رنانتين وهو يضحك مقهقها. وما إن خلت حجرة الاستقبال من الزوار وقد رأيت عددا غفيرا ينصرف - حتى أطبق الظلام ، ورأيت رغم الظلام تلك الدمية وقد شحب لونها ، وانتفض جسدها وسرت فيها الحياة .. كانت تنهض ببطء فإذا بها الآنسة دي سان - أوريول بشحمها ولحمها . توجهت نحوي بلا ضوضاء وسرعان ما شعرت بذراعيها الفاترتين تطوّقان عنقي واستيقظت على لفح أنفاسها ، وهي تقول لي :

- أنا بالنسبة لهم غائبة أما بالنسبة لك فإني حاضرة .

لست متطيرا ولا هيابا .. وإذا كنت قد أشعلت شمعتي فذلك لكي أصرف عن عيني وعن رأسي هذه الصورة الماثلة أبدا .. ولقد تجشمت مشقة كبيرة في سبيل ذلك . وعلى الرغم مني كنت أتنصت على كل صوت عساها تكون موجودة .. وعبثا شغلت نفسي بالقراءة فلم أتمكن من صرف انتباهي عنها إلى أي شيء آخر . وهكذا وأنا غارق في التفكير فيها عاودني النوم حتى الصباح .

6

هكذا فترت الحماسة التي لازمت فضولي العاشق ، ولم أستطع تأجيل رحيلي أكثر من ذلك بعد أن أخبرت به أهل الدار مرة أخرى .. كان ذلك اليوم هو آخر أيامي في الكارفورش .
الآن نحن على الغذاء في انتظار البريد الذي اعتادت ديفلين أن تحمله إلينا قبل الحلوى . وكما سبق وقلت إنها تسلمه لمدام فلوش فتتولى بدورها توزيع الرسائل وتقديم جريدة « الحوار » للسيد فلوش، الذي يتوارى خلف صفحاتها حتى نغادر المائدة .. في ذلك اليوم تعلق مظروف بنفسجي اللون بالجريدة انفصل عن الحزمة وطار حتى وقع فوق المائدة بجوار صحن مدام فلوش . تمكنت من التعرف على الخط الكبير غير المنظم الذي دق له قلبي مساء أمس ، وكذلك مدام فلوش فيما يبدو فأتت حركة سريعة لتغطي المظروف بصحنها . إلا أن الصحن اصطدم بكوب فكسره وسال النبيذ فوق المفرش .. أحدث ذلك ضوضاء عالية ، فانتهزت مدام فلوش الاضطراب وأدخلت المظروف في قفازها .

قالت في سذاجة طفل يبحث عن عذر :

- أردت أن أسحق عنكبا .

كانت لا تفرق بين العناكب وغيرها من الحشرات التي تخرج في بعض الأحيان من سلة الفواكه .. نهضت مدام دي سان – أوريول ملقية منشفتها فوق المائدة ، وقالت بلهجة حادة :

- أراهن أنك أخطأت هدفك .. إلحقي بي في حجرة الاستقبال .. معذرة أيها السادة فقد عاودني المغص .

انتهى العشاء في صمت - لم ير السيد فلوش شيئا ولم يدرك السيد دي سان – أوريول شيئا . كذلك كان القس والآنسة فيردور يركزان البصر كلٌّ في صحنه . ولو لم يتمخط كازيمير لرأيته يبكي .

كان الجو فاترا ، أحضرت الآنسة فيردور القهوة إلى الشرفة الصغيرة التي تؤدي بسطتها إلى حجرة الاستقبال ، كنت أتناول القهوة مع الآنسة فيردور والقس – بلغت آذاننا ضوضاء وأصوات تجيء من حجرة الاستقبال التي كانت السيدتان بداخلها – ثم لم نعد نسمع شيئا فقد صعدت السيدتان ولو صدقت ذاكرتي دارت مشاحنة شجرة الزان ذات أوراق البقدونس .

كانت الآنسة فيردور والقس في حالة حرب دائمة . ولم تكن المعارك بينهما خطيرة تماما ، فقد كان القس يستهدف الضحك والمزاح إلا أن أكثر ما كان يثير ضحك الآنسة فيردور هي لهجة القس الساخرة التي كان يتحدث بها . كانت تعرض نفسها لضرباته فيكيل لها في الصميم وكان لا يكاد يمضي يوم واحد دون أن ينشب بينهما صدام ..

كان القس يسميه مشاحنة ، ويزعم أن صحة الآنسة في حاجة إلى مثل هذه المشاحنات ! فيفعل بها ما يشاء وتطيعه منفذة ما يريد كما الكلب المطيع .. لم يكن شرسا أو ميالا للإيذاء مع أن تصرفاته معها لم تكن تخلو من المكر والخبث وإثارة الأعصاب .. كان هذا يشغل أوقاتها ويملأ الحياة من حولها بهجة ومرحا .

كانت الحادثة التي وقعت أثناء تناول الحلوى قد أثارت أعصابها.. حاولت أن أبعد الأذهان عنها عندما كان الأب يصب القهوة ، فعثرت يدي على حزمة من أوراق الشجر داخل سترتي كنت قطفتها من شجرة غريبة بجوار الباب الحديدي للمدخل لكي أسأل الآنسة فيردور عن اسمها . لم يكن ذلك ، لأني شغوف بمعرفتها لكن لأن الآنسة فيردور كانت تسر عندما يلجأ إليها أحد ليستفسر منها عن أي شيء .

كانت تهتم بعلم النبات . وكانت في بعض الأيام تخرج لجمع الأعشاب ، وقد علقت فوق كتفيها القويتين نحلة خضراء تبدو غريبة الشكل . وتقضي بين أعشابها ومجهرها ما تسمح به أعمال المنزل من فراغ . وعلى ذلك تناولت الآنسة فيردور الفص ، وقالت بلا تردد :

– ياله من اسم غريب ، ومع ذلك فهذه الأوراق المدببة لا علاقة لها إطلاقا بأوراق ...

كان القس يضحك في خبث منذ برهة .. قال دون أن يعير الأمر اهتماما :

– هكذا يسمون في الكارفورش شجرة « الفاجوس بيرسيسيفوليا».

انتفضت الآنسة فيردور وعلقت بقولها :

- لم أكن أعتقد أنك تفهم في علم النباتات إلى هذا الحد !

- كلا ، ولكني مُلم إلى حد ما باللغة اللاتينية ..

مال عليَّ وأضاف قوله:

- هؤلاء السيدات يقعن ضحية خطأ لا دخل لهن به . إن كلمة بير سيكوس يا آنستي العزيزة تعني الخوخ ، وليس البقدونس ، وعلى ذلك فإن « الفاجوس سيسيفوليا » التي لاحظ السيد لاكاز أوراقها المدببة هي « شجرة الزان » ذات أوراق الخوخ .

كان وجه الآنسة فيردور قد امتقع لونه .. وكان الهدوء الذي أظهره القس قد أهاج أعصابها ، إلا أنها استطاعت أن تقول دون أن تنظر إليه:

- علم النبات الصحيح لا يهتم بالشواذ ولا بالمسوخ ..

ثم أفرغت فنجانها مرة واحدة ومضت مثل الريح ..

كان القس قد ضم شفتيه فأصبح فمه مثل مؤخرة الدجاجة ، وجعلت تخرج منه أصوات أشبه بالضراط .. وبذلْتُ مجهودًا كبيرًا حتى لا أضحك .

- هل أنت شرس إلى هذا الحد يا سيدي القس ؟

- كلا ، كلا هذه الآنسة عليها أن تؤدي التمرينات بما فيه الكفاية ، وهي في حاجة إلى أن تلهب دمها . وهي تميل إلى العراك .. هل تتصور

أني لو ظللت ثلاثة أيام دون أن أناوشها تجيء بنفسها وتبدأ العراك ، ثم إن وسائل اللهو في الكارفورش ليست كثيرة .

عندئذٍ شرع كلانا دون كلام في التفكير في رسالة الغذاء ، ثم بادرت بسؤاله :

- هل عرفت الخط ؟

هز كتفيه قائلا :

- قبل الآن أو بعد قليل تصل مثل هذه الرسالة إلى الكارفورش مرتين كل عام ، بعد سداد إيجارات المزرعة ، وفيها تعلن عن حضورها .

صحت قائلا :

- هل ستحضر ؟

- لا عليك ! لا عليك فلن تراها !

- ولماذا لا أراها ؟

- لأنها تحضر في منتصف الليل وترحل فورا ، ثم إنها تتجنب العيون ... وحذارِ من جراسيان .

كان ينظر في وجهي بإمعان فلم أحرك ساكنا ، استطرد بلهجة محتدة:

- لن تعمل حسابا لما قلته لك .. هذا واضح ، ولكني أنذرك فافعل ما يبدو لك وأخبرني غدا .

نهض وتركني دون أن أتمكن من معرفة هل كان يحاول أن يحد من فضولي أم كان يثيره ويلهبه ! حتى المساء ظل فكري الذي لا أحب أن أصف اضطرابه لا شاغل له إلا انتظارها . فهل من الممكن أن أكون وقعت في حب إيزابيل ! كلا بالطبع ولكنني تماديت في لهوي حتى تحرك قلبي . بكل هذا العنف فكيف لا يختلط عليَّ الأمر ؟ لقد صادفت في فضولي كل ما يصحب الغرام من شوق وارتباك ولهفة ولم تزدني كلمات القس الأخيرة غير حماسة وتصميم ، وماذا يمكنه أن يفعل بي جراسيان ؟ سوف أسير فوق الشوك والجمر لو اقتضى الأمر .

لاشك أن أمرا ما غير عادي كان يدبر . ففي المساء لم يقترح أحد اللعب ، وما أن انتهينا من العشاء حتى بدأت مدام دي سان - أوريول تشكو مما كانت تطلق عليه « رفصا » - وإذ بها تنسحب دون استئذان بينما تُعد لها الآنسة فيردور شرابا ساخنا . وما هي إلا لحظات حتى طلبت مدام فلوش من كازيمير أن يذهب لينام . وما أن انصرف الصبي حتى قالت لي :

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب في النوم أيضا فيبدو أن النعاس يداعب أجفانه .

ولما لم أُجب على تعليقها أضافت قولها :

- آه .. أعتقد أن ما من أحد سيطيل السهر أكثر من ذلك ..

نهضت الآنسة فيردور لتشعل الشموع وسرت في أثرها أنا والقس.. فرأيت مدام فلوش تميل على زوجها الذي كان يغط في نومه

فوق المقعد بالقرب من الموقد فنهض من فوره ، ثم سحب البارون من ذراعه فأطاعه هو الآخر كما لو كان يدرك معنى تلك الحركة .. وعلى بسطة الطابق الأول كان كل منا يحمل شمعته فانصرف كلانا إلى حجرته .. وعندئذٍ قال القس بابتسامة غامضة :

- طابت ليلتك ! هنئت بنومك .

أغلقت باب حجرتي .. ومكثت أترقب .. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة حتى سمعت مدام فلوش وهي تصعد إلى حجرتها ، ثم سمعت الآنسة فيردور .. وقعت مشادة حامية على بسطة السلم بين مدام فلوش ومدام دي سان - أوريول التي كانت قد خرجت من حجرتها . وكانتا بعيدتين عني بحيث لم أتمكن من تمييز ما تبادلنه من الألفاظ ، ثم سمعت ضوضاء أبواب تغلق ، ثم لم أعد أسمع شيئا .

تمددت في فراشي حتى أنصرف إلى التفكير .. فاستعدت التمنيات الطيبة بالنوم الهانئ .. والتمنيات التي ودعت بها القس ، وتمنيت لو عرفت هل تهيأ هو للنوم أم أنه استعد للفضول الذي أنكره أمامي ؟ ولكنه كان يرقد في جناح آخر من القصر يقع في الطرف المقابل لحجرتي ، ولم يكن هناك من سبب وجيه يبرر انتقالي إليه . ومع هذا فمن منا سيكون أكثر حرجا لو فاجأ الآخر في الدهليز ؟ .. وبينما أنا غارق في التفكير وقع لي حادث سخيف مخجل لا يمكن أن أصرح به فغلبني النوم . أجل فالإجهاد الذي تملكني من طول الانتظار بعد

الليلة السابقة التي أمضيتها أرقا قلقا تغلب على رغبتي وحرصي على البقاء ساهرا يقظا فاستغرقت في نوم عميق .

استيقظت على طقطقة الشمعة وهي توشك على النفاد ، أو ربما استيقظت على حركة هزت أرضية الدهليز في صوت مكتوم سمعته أثناء نومي ، ولا شك أن أحدا سار في الدهليز فاعتدلت جالسا .. في تلك اللحظة انطفأت شمعتي فظللت في ظلام الليل حائرا ولم يكن معي ما يضيء غير بضعة أعواد من الثقاب حككت إحداها لأتبين الوقت من ساعتي .. كانت الحادية عشرة والنصف .. فأرهفت سمعي ولكني لم أعد أسمع شيئا .. قمت أتحسس طريقي حتى بلغت باب الحجرة ففتحته .

كلا لم يكن قلبي يدق رجفةً أو اضطرابا ، بل كنت أشعر أنني خفيف الجسم رابط الجأش مطمئن النفس متفتح الذهن حازم الأمر .

في الطرف الآخر للدهليز كانت ثمة نافذة ترسل ضوءها فيصلني غير رائق ولا صاف كضوء الليالي الهادئة ، وإنما ضوء خفّاق ينجلي حينا ويستتر حينا آخر ؛ فقد كانت السماء تمطر وكانت الرياح أمام القمر تحمل سحبا كثيفة . كنت قد خلعت حذائي فتقدمت من دون ضوضاء .. لم أكن بحاجة إلى إمعان النظر لأصل إلى المكان الذي كنت أعددته للمراقبة . كان يمثل حجرة صغيرة مهجورة بجوار حجرة مدام فلوش حيث كان يدور الهمس بعيدا عن العيون .. كان السيد فلوش يشغل هذه الحجرة في البداية (لكنه أصبح الآن يفضل كتبه

على زوجته) وكان الباب الذي يصل إليها قد فتح قليلا ، وكنت قد أحكمت إغلاقه بالمزلاج حتى أتجنب المفاجأة .. فتأكدت أني أستطيع أن أنظر بعيني من تحت إطار الباب .. ولكي أبلغ ذلك كان لابد لي أن أجلس فوق خزانة كنت قد دفعتها قريبا من المكان .

في تلك اللحظة كان يتسرب من تلك الفتحة بصيص من النور ينعكس على سقف الحجرة الأبيض فيهديني ويرشدني ، ووجدت كل شيء على حاله التي تركته عليها في النهار . صعدت فوق الخزانة وتجولت ببصري في أرجاء الحجرة المجاورة .

كانت إيزابيل دي سان - أوريول موجودة .

كانت أمامي على بعد خطوات مني .. . جالسة على مقعد منخفض دون مسند ، وقد تسبب وجوده في تلك الحجرة العتيقة في دهشتي ؛ لأني لا أذكر أني رأيته فيها عندما دخلتها أحمل الزهور .. كانت مدام فلوش تجلس غارقة في مقعد وثير ضخم . كان إلى جانب المقعد منضدة صغيرة عليها مصباح يلقي عليها وعلى الآنسة إيزابيل ضوءا خافتا .. كانت إيزابيل تدير لي ظهرها وكانت تميل إلى الأمام فتكاد تكون راقدة في حجر خالتها العجوز بحيث لم أتمكن في البداية من رؤية وجهها . وسرعان ما رفعت هامتها وكنت أتوقع أن أراها وقد تقدمت في السن . مع أني لم أكد أتعرف في وجهها على تلك الفتاة التي طالعتها في الصورة . وهذا لا يعني أنها كانت أقل جمالًا من الصورة ، بل كان جمالها من نوع آخر جمال أقرب إلى عالم الأرض ودنيا البشر .



إن تلك البراءة الملائكية التي تطالعها في الصورة زالت ليحل مكانها وجه ناعس ساهم عاطفي . ارتسمت في طرفي شفتيها علامة تنم عن نفور لا أدري كنهه بينما كانت في الصورة فاغرة الشفتين ، وكانت تتدثر معطف سفر ضد الماء من قماش شائع في ذلك الوقت . ولما كان المعطف مرفوعا من ناحية ، فقد أبان عن ثوب أسود لامع تدلت عليه يد تعرت من قفازها تمسك بمنديل ، وكانت هذه اليد تبدو شاحبة هزيلة بطريقة غريبة .. كان رأسها مكسوا بغطاء من اللباد والريش المموج ، يحيط به شريط من الحرير تدلت من تحته خصلة من الشعر الفاحم . وما إن تميل برأسها حتى تنطرح إلى الأمام فتحجب وجنتيها .. كان الناظر يظنها في لباس حداد لولا شريط لامع أخضر يطوّق رقبتها . لم تكن تنطق بكلمة لاهي ولا مدام فلوش إلا إنها كانت تربت بيدها على ذراع مدام فلوش وتجذبها نحوها ، ثم ما لبثت أن انهالت عليها لثما وتقبيلا .

رأيتها بعد ذلك تهز رأسها فتتمايل خصلات شعرها وتهفهف ذات اليمين وذات اليسار ، وعندئذٍ قالت وكأنها تعقب على عبارة قالتها من قبل :

- كل الوسائل . لقد جربت كل الوسائل .. أقسم لك ..

فقاطعتها العجوز ، وهي تضع يدها فوق جبين الفتاة :

- لا تقسمي يا بنيتي المسكينة أصدقك دون قسم ..

كل منهما كانت تتحدث بصوت منخفض أشبه بالهمس كما لو كانتا تخشيان أن يسمعهما أحد .. اعتدلت مدام فلوش في جلستها ودفعت ابنة أختها برقة ، ثم استندت على ذراعي المقعد ونهضت . وبالمثل نهضت الآنسة دي سان - أوريول ، وبينما كانت العجوز تتجه نحو الخزانة التي كان كازيمير قد أخرج منها الصورة أول أمس ، تقدمت الفتاة في الاتجاه نفسه بضع خطوات وتوقفت أمام مائدة صغيرة ملتصقة بالجدار وفوقها مرآة كبيرة .. وبينما كانت العجوز تنقب في أحد الأدراج لمحت الآنسة في المرآة الشريط الزمردي الذي يطوّق عنقها فبادرت بنزعه بسرعة ولفته حول أصبعها .. وقبل أن تلتفت مدام فلوش كان الشريط قد اختفى . كانت إيزابيل قد اتخذت هيئة التفكير والتأمل وتدلت يداها إلى الأمام متشابكتين وغابت نظرتها .

كانت مدام فلوش لا تزال تمسك بإحدى يديها بحزمة المفاتيح ، وفي يدها الأخرى لفة صغيرة من الأوراق أخرجتها من الدرج ، وكانت تهم بالجلوس في مقعدها الوثير عندما فتح الباب المواجه للباب الذي كنت أقف عنده فجأة وعلى سعته كدت أصيح من هول الدهشة ، فقد ظهرت البارونة في إطار الباب شعثاء مكشوفة الجبين مخضبة الوجه في ثياب فضفاضة وعلى رأسها غطاء ضخم من الريش .كانت تحمل شمعدان ذا ست شعب أخذت تهزه بعنف .. كانت كل شموعه مشتعلة فتغمرها بضوء خفاق ، وتنشر على الأرض

قطرات من النور . ولما كانت منهكة القوى أسرعت بوضع الشمعدان فوق المائدة الصغيرة التي تحمل المرآة ، ثم عادت بأربع خطوات خفيفة إلى مكانها في إطار الباب وتقدمت من جديد في خطى منظمة وبطريقة مهيبة تشيح بيدها المثقلة بالخواتم الضخمة ، وما إن بلغت منتصف الحجرة حتى توقفت والتفتت مرة أخرى ناحية ابنتها ، وقالت وهي لا تزال متوترة الحركة بصوت يكاد يخترق الجدران :

- إليك عني أيتها الابنة العاقة لن أتأثر بدموعك وشكواك التي ضلت طريقها إلى قلبي إلى الأبد .

جاء قولها بطريقة خطابية شبيهة بالصراخ بنغمة واحدة . وهنا كانت إيزابيل قد ارتمت عند قدميها وأمسكت بطرف ثوبها وجذبته كاشفة عن حذاءين صغيرين من الحرير الأبيض ، وأخذت تضرب بجبينها الأرض التي كان يكسوها بساط .. إلا أن مدام سان - أوريول لم تخفض بصرها لحظة واحدة واستمرت تصوّب نظراتها حادة جامدة كصوتها إلى الأمام ، ثم قالت :

- أو لم تكتفي بجلبك الشقاء لأهلك وتريدين أن تتمادي .. عندئذٍ خانها صوتها فجأة فالتفتت ناحية مدام فلوش ، وكانت هذه قد تضاءلت وأخذت ترتجف في مقعدها الوثير وخاطبتها قائلة :

- أما أنت يا شقيقتي فلو كان الضعف لا يزال ..

ثم استدركت قائلة :

- لو دفعك ضعفك الآثم إلى النزول مرة أخرى على تضرعاتها ، ولو كان ذلك بقبلة ، ولو كان ذلك بأقل عطاء فتأكدي مثل تأكدك بأنني شقيقتك أني سأهجرك .. ولن ترى وجهي ماحييت .

كنت كما لو كنت في مسرح ولكن لما كانت هاتان السيدتان لا تتمكنان من ملاحظة نفسيهما فلِمَ يا ترى كانتا تمثلن هذه المأساة ؟ كذلك كانت الفتاة مبالغة في حركاتها وإيماءاتها متكلفة مثل أمها .. كانت الأم تواجهني بحيث كنت أرى إيزابيل من ظهرها وقد ركعت واتخذت وضع استير الأسطوري وهى تتضرع ، وإذا بي أرى قدميها المنتعلتين حذاء حريريا بلون الخوخ . هكذا بدا لي تحت طبقة الوحل التي كانت تعلوه .. كانت ترتدي جوربا أبيض رأيته أعلى الحذاء ، وقد ترك عليه طرفي الثوب المبلل الموحل عندما رفع بقعة قذرة .. وفجأة دوّى في أعماقي كل ما تحكيه هذه الأشياء من مغامرات وشقاء فاق في قوته شتائم العجوز .. وإذا بعبرة تخنق حلقي فقررت أن ألحق بـ «إيزا » في الحديقة عندما تغادر القصر .

عندئذٍ كانت مدام فلوش قد تقدمت ثلاث خطوات مقتربة من مقعد مدام دي سان - أوريول :

- هيا أعطني هذه الأوراق المالية .. أتعتقدين أني لا أراها وأنت تفركيها تحت قفازك ؟ أتعتقدين أنى عمياء أو مجنونة ؟ أعطني هذه

النقود قلت لك ، وما إن استولت على النقود حتى قربتها من لهب إحدى شموع الشمعدان بطريقة مسرحية ، وهي تقول :

- أفضّل أن أقوم بإحراقها جميعا (مع إنها لم تفعل ذلك) على أن أعطيها فلسا واحدًا .

دست الأوراق المالية في جيبها واستأنفت قولها :

- أيتها الابنة العاقة .. أيتها الابنة الجاحدة .. الطريقة التي سلكتها أساوري وعقودي ستجعلين خواتمي تسلكها هي الأخرى !

كانت تقول ذلك وهي تهز يدها الممدودة في حركة خفيفة فسقط خاتمان فوق البساط ، فما كان من إيزابيل إلا أن انقضت ككلب جائع ينقض على العظام !

- انصرفي الآن لم يعد بيننا ما يقال أنا بريئة منك ..

تناولت مطفأة للشموع من فوق المنضدة ، وأخذت تطفئ الواحدة بعد الأخرى ، ثم انصرفت .

بدت الحجرة مظلمة كانت إيزابيل قد نهضت فمررت أصابعها على وجنتيها وطرحت خصلاتها إلى الخلف وهي متناثرة وأصلحت من وضع قبعتها .. هزت جسدها فعدلت المعطف الذي انحسر عن كتفيها قليلا ، ثم مالت على مدام فلوش لتودعها .. لاح لي أن المرأة المسكينة كانت تحاول أن تحدثها ، فما كان من إيزابيل إلا أن تناولت إحدى يدي العجوز المرتجفتين وضغطت عليها بشفتيها دون أن تنبس بحرف واحد. وما هي إلا لحظة واحدة حتى انطلقت إلى الدهليز في إثرها .

في اللحظة التي كنت أهبط فيها السلم أوقفني صوت ما فعرفت فيه صوت الآنسة فيردور التي لحقت بها إيزابيل في المدخل ورأيتها وأنا أميل على الدرابزين ، وكانت أوليمب فيردور تمسك بيدها مصباحا صغيرا كانت تقول :

- هل ستذهبين دون أن تقبليه ؟

فهمت أنها تتحدث عن كازيمير .

- ألا تريدين أن تلقي نظرة عليه ؟

- كلا يا لولي إني متعجلة للغاية لا ينبغي أن يعرف أني جئت .

أطبق صمت وحركات لم أدرك معناها في البداية ، ثم اضطرب المصباح عاكسا ظلالا متراقصة ..

تقدمت الآنسة فيردور وتقهقرت إيزابيل بضع خطوات ، ثم سمعت :

- بلى بلى ، ذكرى لك مني احتفظت به منذ وقت طويل . أما الآن فقد تقدمت بي السن ، فماذا أفعل به ؟

- لولي لولي .. أنت خير ما أتركه هنا ..

ضمتها الآنسة فيردور بين ذراعيها :

- أه ! يا للمسكينة ! إنك مبللة تماما .

- أمعطف فقط ! ، ليس هناك من خطر دعيني أذهب بسرعة ..

- خذي معطفا يقكِ المطر على الأقل ..

- كف المطر والمصباح .

- ماذا سأفعل به ؟ العربة قريبة جدا .. الوداع ..

- الوداع يا ابنتي المسكينة .. أتمنى من الله ..

غابت بقية العبارة في النحيب ، ومكثت الآنسة فيردور بضع لحظات ماثلة بجسمها في ظلام الليل . وصعدت .. هبت ريح رطبة من الخارج إلى بير السلم ، ثم سمعت الآنسة فيردور تدفع المزلاج في الباب الذي كانت قد أغلقته .

لم يكن ممكنا أن أمر أمام الآنسة فيردور .. وكان جراسيان يحمل في كل مساء مفتاح باب المطبخ ، وكان هناك باب آخر في الطرف الآخر من القصر . كان من السهل أن أخرج منه . لكن الطريق إليه كان طويلا . وقبل أن أبلغه تكون إيزابيل قد وصلت إلى عربتها . آه ! لو أناديها من النافذة .. أسرعت إلى حجرتي كان القمر قد عاد إلى الاختفاء فانتظرت لحظة أرقب صوت الخطى فهبت ريح شديدة . وبينما كان جراسيان يعود إلى المطبخ سمعت من خلال حفيف الأشجار المضطربة عربة إيزابيل وهي تنطلق مبتعدة .

7

أجلت كل ما يهمني وما أن عدت إلى باريس حتى استغرقتني المشاغل التي صرفت إليها ذهني واستأثرت بتفكيري .. كان القرار الذي اتخذته بخصوص عودتي إلى الكارفورش في الصيف القادم قد خفف من حدة أسفي لأني لم أتماد في المغامرة التي كنت قد بدأت أنساها عندما تلقيت إشعارا مزدوجا في نهاية يناير . فقد توفى السيد فلوش ولحقت به زوجه بعد فترة قصيرة . على المظروف تعرفت على خط الآنسة فيردور ولكني أرسلت إلى كازيمير بعبارات الأسف والمشاركة المألوفة وبعد أسبوعين تلقيت هذه الرسالة:

عزيزي السيد جيرار .

(لم يرغب الصبي أن يدعوني بلقب العائلة وكان قد سألني في إحدى نزهاتنا وبالتحديد في اليوم نفسه الذي بدأت أحدثه فيه بلا كلفة قال : ما اسمك ؟ - ولكنك تعرفه ياكازيمير اسمي السيد لاكاز .. فعاد يقول : كلا ، لا أريد هذا اللقب أريد اسمك أنت) ..

« جميل منك أنت تكتب لي كان خطابك جميلا ، لأن الكارفورش الآن أصبحت حزينة ، أصيبت جدتي بوعكة يوم الخميس ولم يعد

بإمكانها مغادرة حجرتها وقد عادت والـدتي إلى الكـارفورش ورحـل الأب عنها ؛ لأنه عين قسًّا في بروي » كان مـوت خـالي وخـالتي بعـد ذلك .. مات خالي أولا وكان يكِنُّ لك حبا كبيرا وفي يوم الأحد التـالي ماتت خالتي بعد مرض استمر ثلاث أيام لم تكن أمي موجودة وكنت وحدي مع لولي ويلفين زوجة جراسيان ، وهي تحبني كثيرا كـان أمـرا يبعث على الحزن والأسـى ؛ لأن خـالتي لم تكـن تريـد أن تفـارقني . ولكن لم يكن هناك مفر من ذلـك . أنـا الآن أنـام في حجـرتي بجـوار ديفلــين ؛ لأن لــولي تركتنــي إلى أخ لهــا اســتدعاها في « الأورن » وجراسيان أيضا لطيف معي للغايـة علمنـي طريقـة الغـسل وتلقـيح الأشجار وهو ما يسليني كما أساعد في تحطيم الأشجار . تذكر الورقة التي كتبت لي فيها تعهدك . عليك بنسيانها فلـن يكـون هنـا أحـد في استقبالك إلا انه يحزنني كثيرا ألا أراك مرة أخرى ؛ لأني أحببتك حبـا صادقا ولن أنساك .. صديقك الصغير كازيمير .

لم أكترث كثيرا لوفـاة الـسيد فلـوش وزوجـه لكــن هـذه الرسـالة العفوية حركت مشاعري كنت مـشغولا وقتهـا إلا أني أخـذت عهـدا على نفسي بأن أخرج في جولة استكشافية حتى الكارفورش ما أن تبدأ إجازة عيد الفصح . فماذا يعنيني في عـدم اسـتقبالي ؟ سـوف أنـزل في «البون – ليفيك » وأستأجر عربة فهل أنا في حاجة إلى إضـافة احـتمال لقاء إيزابيل الغامضة والتي تجذبني قدر شفقتي عـلى الـصبي ! كانـت بعض فقرات الرسالة غامضة لي ووجدت عناء في ربـط الأحـداث ..

مرض العجوز وصول إيزابيل إلى الكارفورش ، رحيل القس ، وفاة العجوزين في غياب ابنة الأخت ، سفر الآنسة فيردور .. هل ينبغي ألا أرى في كل ذلك غير سلسلة من الأحداث العرضية أم كان ينبغي أن أبحث عن صلة تربط بينها ؟ لو حاولت فلا كازيمير سيفيدني ولا القس سيخبرني .

اضطررت للانتظار حتى شهر أبريل وجاء اليوم الثاني من إجازتي فسافرت .

على محطة « بروي » ، لمحت القس سانتال يتهيأ ليستقل قطاري فناديته فأجابني قائلا :

- هل عدت إلى البلدة مرة أخرى ؟

- لم أكن أتصور أنى سأعود إليها فعلا بهذه السرعة !

صعدت إلى ديواني .. كنا فيه وحدنا .

- إيه ، حدثت أمور جديدة بعد زيارتك .

- نعم علمت أنك عينت قسًّا في « بروي » .

- دعك من هذا !

مد يده في حركة فهمتها ، فقال :

- هل وصلك إشعار ؟

- نعم وعلى الفور أرسلت بعزائي لتلميذك ؛ فهو الذي أخبرني ولكنه لم يخبرني إلا بالقليل، وكنت سأكتب لك لأسألك بعض التفاصيل ؟

- كان ينبغي أن تفعل ذلك :

فأضفت ضاحكا :

- تصورت أنك قد لا ترحب باطلاعي على شيء ..

لكنه كان يبدو أقل تكتما مما كان أيام الكارفورش ، وبدا عليه الاستعداد للكلام .

- هل تصدق أن كل ما يحدث هناك يبعث على الأسى والحزن ؟

جميع الممرات سوف تمر بالمحنة نفسها .

لكني لم أدرك قصده من أول وهلة إلا إني تذكرت عبارة كازيمير عندما قال : « أعاون في تحطيم الأشجار »

فسألته بسذاجة :

- ولماذا ذلك ؟

- لماذا ؟ آه يا سيدي الطيب . سل إذًا الدائنين عن ذلك ؟ ثم إن الأمر لا يعنيهم ، بل إن كل شيء يجري دون علمهم . الضيعة غارقة في الديون والآنسة دي سان - أوريول تسلب ما يمكنها سلبه .

- هل هي هناك ؟

- كأنك لا تدري

- استنتجت ذلك من بعض عبارات ..

- ساءت الأمور منذ وصولها .

صمت لحظة لكنه لم يتمكن من مقاومة حاجته للكلام هذه المـرة ، بل لم يعد ينصت لأسئلتي وجـدت أن الأفـضل ألا أوجـه لـه سـؤالا فاستطرد يقول :

- كيف علمت هي بـشلل والـدتها ؟ هـذا مـا لم أجـد لـه تفـسيرا وعندما علمت أن البارونة العجوز لم يعد في إمكانها مفارقـة مقعـدها حضرت بمتاعها ولم تجرؤ مدام فلوش على طردها . وهنا رحلت أنا .

- من المؤسف أنك تخليت عن كازمير بهذه الطريقة .

- ربما لكن مكاني ليس جوار هذه المخلوقـة .. نـسيت أنـك كنـت تدافع عنها .

- وقد أدافع عنها أيضا لو كان ثمة مجال لذلك يا سيدي الخوري .

- كما تحب . نعم ، نعم فالآنسة فيردور كانت تـدافع عنهـا أيـضا وظلت تدافع عنها حتى رأت سيديها على فراش الموت .

راقني أن القس تخلى عـن التـأنق في اسـتخدام اللفـظ الـذي كـان يتوخاه في الكارفورش .. أصبح يـستخدم مـن الإيـماءات والألفـاظ مايميز خوريا في قرية نورماندية . استأنف حديثه بقوله :

- هي أيضا وجدت من الغريب أن يموت الاثنان في وقت واحد.

- هل ؟

- أنا لا أزعم شيئا .

نفخ شفته العليا كعادته القديمة ، وعاد يقول :

- لا يمنع أنهم بدأوا يتندرون في البلدة .. ويسوؤهم أن ترث الفتاة خالتها ! أنت رأيت بنفسك أن الآنسة فيردور آثرت الرحيل .

- ومن بقى إلى جوار كازيمير ؟

- آه ! لعلك أدركت أن أمه لا تصلح معشرا حسنا له ! وهو يقضي كل وقته عند آل « شوانتروى » أقصد البستاني وزوجته .

- جراسيان ؟

- أجل جراسيان الذي عارض تحطيم أشجار الحديقة ، إلا أنه لم يتمكن من منع شيء .. إنها مأساة !

- على كل لم يكن آل فلوش معدومين ..

- كل شيء سُلب من اليوم الأول يا سيدي العزيز ، كانت مدام فلوش تمتلك مزرعتين من الثلاث التي تتألف منها الكارفورش فبيعت هاتان المزرعتان منذ أمد للمزارعين . أما الثالثة من أملاك البارونة ، فلم تعد تؤجر للفلاحين ؛ إذ كان جراسيان يشرف على محصولها وسرعان ما عرضت للبيع هي الأخرى .

- الكارفورش تعرض للبيع !

- بالمزاد . لكن هذا لن يتم قبل نهاية الصيف . صدقني أن الآنسة تستفيد من هذا الوضع حتى يحين وقت البيع . وستبذل في سبيل ذلك ما بوسعها فعندما يتم نزع نصف الأشجار ..

- كيف يتقدم أحد لشرائها منها وهي لا تملك حق بيعها ؟

- آه ! أنت لا تزال شابا حدث السن .. عندما تعرض السلعة بثمن زهيد تجد دائما من يشتريها !

- أي محضر يمكنه أن يحول دون ذلك !

- المحضر متفاهم مع مدير أعمال الدائنين وهو يقيم بالكارفورش، مال على أذني وقال :

- مادامت تريد أن تعلم كل شيء فاعلم أنه ينام معها .

سألته دون أن أظهر تأثرا بعبارته الأخيرة :

- وكتب السيد فلوش وأوراقه ؟

- سيعرض أثاث القصر مع المكتبة للبيع قريبا .. بمعنى أصح، سيوقع عليها الحجز .. ولحسن الحظ فإن أحدا لا يدرك قيمة بعض المؤلفات وإلا لاختفت منذ زمن !

- وقد يظهر أفاق فجأة !

- الآن وضعت الأختام فلا تخش شيئا فلن ترفع إلا عند الجرد .

- وما قول البارونة في هذا كله ؟

- لا تدرك شيئا .. فهم يقدمون لها الطعام في حجرتها ، وهي لا تعرف حتى أن ابنتها موجودة بالقصر .

- وماذا عن البارون ؟

– مات منذ ثلاثة أسابيع في « كابن » في ملجأ كنا قد وفقنا في إدخاله إليه .

بلغنا « بون ليفيك » فأقبل كاهن للقاء القس سانتال الذي أستأذن مني بعد أن دلني على فندق ومؤجر عربات .

أوصلتني العربة التي استأجرتها في اليوم التالي حتى مدخل حديقة الكارفورش واتفقت مع صاحب العربة على أن يرجع بعد ساعتين ليعود بي بعد أن تكون الجياد قد استراحت في حظيرة إحدى المزارع .

وجدت باب الحديقة الحديدي مفتوحا على مصراعيه .. كانت أرضية الممر قد تلفت من جراء عربات النقل . توقعت أن أشاهد أفظع مظهرا للدمار والخراب ولكني فوجئت مفاجأة سارة ، إذ رأيت عند المدخل شجرة الزان ذات أوراق الخوخ وقد نبتت براعمها . لم أفكر أنها لا تدين بحياتها إلا لدنو أخشابها . وبينما كنت أتقدم ، وجدت إن الفأس قد أتت على أجمل الأشجار ، وقبل أن أخوض في جوانب الحديقة أردت أن أزور الدار الصغيرة التي اكتشفت فيها رسالة إيزابيل ، ولكنى وجدت مكان مزلاجها المحطم قفلا مغلقا (علمت بعد ذلك أن الحطابين يكدسون في هذه الدار أدواتهم وملابسهم) . مضيت في طريقي متجها إلى القصر . كان الطريق الذي سلكته مستقيما تحف به أشجار العوسج المنخفضة ولم يكد يؤدى إلى واجهة القصر ، وإنما كان يؤدى إلى جناح المرافق وينتهي إلى المطبخ

الذي يطل على باب بستان الخضراوات وكنت لم أزل بعد بعيدا عن ذلك الباب عندما شاهدت جراسيان يخرج منه حاملا سلة من الخضراوات .. لمحني ولكنه لم يتعرف عليَّ من أول وهلة ؛ فناديته فأقبل نحوي وبادرني بقوله :

- آه ! السيد لاكاز ! حقا ما كان أحد يتوقع أن يراك في مثل هذا الوقت !

أخذ يتطلع إليَّ وهو يهز رأسه . لم يدارِ تبرمه من حضوري ، ولكنه أضاف بلهجة أكثر رقة :

- ومع كل فسيسر الصبي لرؤيتك ..

كنا قد مشينا بضع خطوات نحو المطبخ دون كلام ، فأشار لي بأن أنتظره ودخل ليضع سلته ، ثم عاد وقال لي بلهجة أكثر حفاوة :

- جئت إذًا لترى كيف تسير الأمور في الكارفورش ؟

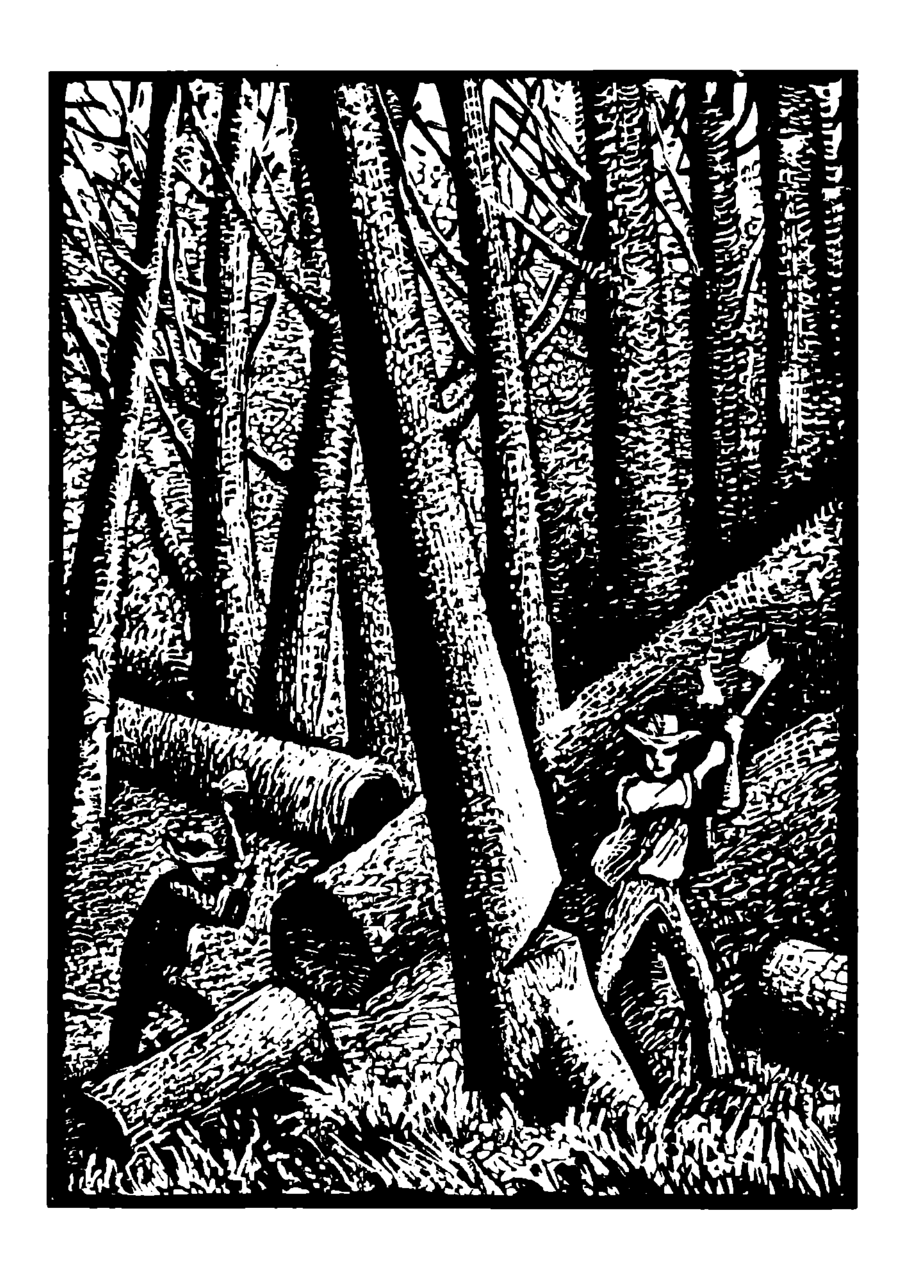
- يبدو أنها ليست على خير ما يرام !

نظرت إليه فإذ بذقنه يرتجف وظل ممسكا عن الإجابة وفجأة جذبني من ذراعي واقتادني إلى العشب الذي كان يمتد أمام درج حجرة الاستقبال ، حيث كانت ترقد جثة شجرة زان ضخمة أذكر أني احتميت بها من المطر في الخريف . كانت أكداس وحزم من أغصانها منزوعة عنها قبل اقتلاعها ، قال لي :

- هل تعلم كم تساوي شجرة كهـذه ؟ اثنتـا عـشرة بـستولة وهـل تعلم بيعت بكم ؟بيعت هي وأمثالها بأقل من بستولة !

لم أكن أعلم أنهم في تلك البلدة يطلقون كلمـة بـستولة عـلى قطعـة النقود فئة العشرة فرنكات ، ولكـن لم يكـن ذلـك وقـت الاستفـسار والاستيضاح .. كان جراسيان يتكلم بصوت مخنوق . التفت إليه فـإذ به يمرر ظهر يده على وجهه فيمسح دموعا أو عرقا ، ثم ضـم قبـضته وقال :

- آوه ! يا لهم من لصوص ! يا لهم من لصوص ! عنـدما أسـمعهم يضربون بسواطيرهم وفئوسهم .. أشعر بالجنون .. إن ضرباتهم تنهال فوق رأسي ، فأشـعر برغبـة في أن أصـيح النجـدة ! اللـص ! وأشـعر بالرغبة في القتل . أول أمس قضيت نصف النهـار داخـل القبـو كـان الـصوت يـصلني ضـعيفا .. في بـادئ الأمـر وجـد الـصبي في عمـل الحطابين شيئا من اللهو والتسلية وعندما كانت الـشجرة تـشرف عـلى السقوط كانوا ينادونه ليشد الحبل معهم . لكن عندما اقـترب هـؤلاء الأفاقون من القصر ، وهم يواصلون اقـتلاع الأشـجار ، بـدأ الـصبي يشعر بأن الأمر لم يعد مدعاة للتسلية . وإذا به يخـاطبهم بقولـه : « آه ! دعوا تلك» فقلت له «يا صغيري المسكين حتى لو تركوها فلـن تكـون لك هي وغيرها» .. وأخبرته بأنه لن يستطيع البقـاء في الكـارفورش ، ولكنه صغير لا يفهم أنهـم سـلبوه كـل شيء . لـو أبقونـا في المزرعـة الصـغيرة لمـا تـوانيت عـن أخذه معـنا ، ولكـن أحـدا لا يـدري مـن



سيشتريها ، ومن سيكون الوغد الذي سيحتل مكاننا فيها ؟! وكما ترى يا سيدي فأنا لست عجوزا بعد ولكني كنت أفضل أن أموت قبل أن أرى كل هذا ..

- ومن يقيم بالقصر الآن ؟

- لا أريد أن أعرف ذلك . الصغير يتناول طعامه معنا في المطبخ . وهذا خير له . والبارونة لم تعد تفارق حجرتها . وهذا لحسن حظها المسكينة وديلفين هي التي تحمل إليها وجباتها عن طريق سلم الخدم حتى تتجنب لقاء من لا تحب .. أما الآخرون فلديهم من يقوم على خدمتهم ، ونحن لا نتحدث مع أحد .

- ليس من المفروض أن يوقع حجز على الأثاث قريبا ؟

- عندها سنحاول أن نصطحب سيدتي البارونة إلى المزرعة حتى لا تعرض للبيع مع القصر.

سألته مترددا ؛ لأني لم أكن أدري كيف دعوني :

- والآنسة ... وابنتها ؟

- يمكنها أن تذهب حيث تشاء بعيدا عنا ، فكل ما يحدث هو بسببها .

كان صوته يرتجف من شدة الغضب، بحيث أدركت كيف استطاع هذا الرجل أن يصل إلى حد ارتكاب جريمة للذود عن شرف سادته .

- هل هي الآن بالقصر ؟

- في هذه الساعة لابد أنها تتنزه في الحديقة . ويبدو أن ما يحدث لا يضيرها ؛ فهي تتطلع إلى الحطابين وفي بعض الأيام تتحدث معهم بلا حياء . لكن عندما تمطر السماء لا تفارق حجرتها . انظر ها هي حجرتها تلك التي تقع في الزاوية وهى تقف ملتصقة بزجاج النافذة تتطلع إلى الحديقة . لو لم يكن رجلها في « ليزبو » منذ ربع ساعة لما وجدتني بالخارج . آه ! هذه هي المدنية يا سيد لاكاز . لو قدر لسادتي المساكين أن يعودوا ليروا ما يحدث في عقر دارهم لأسرعوا بالعودة إلى مثواهم .

- كازيمير هل هو هنا ؟

- يتنزه أيضا في الحديقة . هل تريد أن أستدعيه ؟

- كلا سأعرف كيف أعثر عليه بنفسي .. إلى اللقاء قريبا ، سأعود لرؤيتك طبعا أنت وديفلين قبل الرحيل.

بدا الدمار الذي أحدثه الحطابون بشعا في ذلك الوقت الذي يتهيأ فيه كل شيء ليبعث من جديد . في ذلك الجو الفاتر كانت أفنان الأشجار تمتلىء وتنتفخ وتنبت فيها البراعم . كان كل غصن قطع من شجرته يبكى عصارته . كنت أتقدم في خطى وئيدة وأنا مكتئب النفس . وكان يزيد اكتئابي ما كان يبعثه المشهد حولي من ألم . ربما كنت ثملا من شدة الأريج النباتي الذي كان يخرج من الشجر المحتضر وبطن الأرض .

إن ما يمثله ذلك التعارض بين تلك الأشلاء من الموتى والربيع الوليد لا يكاد يؤثر في نفسي ، وهكذا لم تكلفت الحديقة وفتحت ذراعيها للنور الذي بدأ يصبغ ما فيها من موت وحياة بلونه الذهبي . ومع ذلك فقد كانت دقات قلبي السعيدة تصاحب النغمات الحزينة التي كانت تأتيني من بعيد صادرة عن الفئوس التي كان صداها الجنائزي يملأ الأرجاء . وكانت الرسالة القديمة التي حملتها معي وآليت على نفسي ألا أستفيد منها مع أني في بعض الأحيان كنت أضمها إلى قلبي تلهبه وتضرم فيه النار . كنت أحدث نفسي قائلا : لاشيء يستطيع أن يعترض سبيلي اليوم .. وابتسمت عندما شعرت أني أسرع الخطى لمجرد التفكير في إيزابيل . لما كنت مدفوعا في ذلك بإرادتي ولكن كانت بداخلي قوة تدفعني إلى ذلك .

عجبت لما في الدار من وحشية زادت ببهاء الطبيعة في عيني ، وعجبت كيف أن اغتياب القس لإيزابيل لم ينجح في إبعادي عنها . وأني كلما كنت أفكر فيها يلتهب شوقي إليها .. لماذا يا ترى لا يزال يربطها بهذه الأماكن التي تفيض ذكريات بغيضة ؟ كنت أعرف أنه ما من شيء سيتبقى لها من الكارفورش عندما تباع ولن يبلغها منها عائد.. فلماذا لم تلذ بالفرار ؟ صور لي خيالي أن أقوم باختطافها ذلك المساء في عربتي فأسرعت خطاي ، بل كنت أعدو تقريبا عندما فوجئت بها على بعد مسافة مني .. كانت هي بلا شك في ثياب الحداد عارية الرأس جالسة فوق جذوع شجرة محطمة تعترض الممر .. دق

قلبي بشدة لدرجة أني اضطررت للتوقف بعض الوقت ، وتقدمت في اتجاهها بخطى بطيئة وهدوء كما المتنزه الذي لا يعبأ بشيء . وما أن بلغتها حتى سألتها :

- معذرة يا سيدتي .. أنا الآن في الكارفورش أليس كذلك ؟

وإلى جوارها فوق جذع الشجرة كانت توجد سلة لأشغال الإبرة مليئة ببكرات الخيط وأدوات الحياكة وقطع من قماش الكريب ملفوفة على بعضها أو منكوشة . وكانت منصرفة إلى تثبيت أجزاء من هذا القماش فوق غطاء متواضع للرأس مصنوع من اللباد كانت تمسكه بيدها . رأيت على الأرض شريطا أخضر يبدو أنها نزعته عن غطاء الرأس منذ قليل . كانت تتدثر بمعطف صغير أسود يغطي كتفيها . عندما رفعت هامتها أبصرت الإبزيم المبتذل الذي كانت تغلق به ياقة المعطف .. لم أشك في أنها لمحتني من بعيد ؛ لأن صوتي لم يفاجئها . قالت :

- جئت تشتري الضيعة ؟

قالتها بصوتها الذي تعرفت عليه فدق له قلبي . كم كان جبينها المكشوف جميلا !

- آوه ! بل جئت زائرا .. كانت الأبواب الحديدية مفتوحة ورأيت أناسًا يتجولون فهل أكون متطفلا إذ دخلت ؟

- كل من يريد الدخول يستطيع أن يدخل الآن .

وأطلقت زفرة عميقة لكنها عادت إلى عملها كأنها لم يعد بيننا ما يقال.

ولما لم أكن أدري كيف أواصل حديثا ، قد يكون الوحيد بيني وبينها ، فكان يجب أن يكون قاطعا ونهائيا حديثا بدا لي أن الوقت لم يحن بعد للخوض فيه فقد كنت أنوي أن احتاط له قبل طرقه . ولما كان عقلي وعاطفتي قد فاضا بالانتظار والأسئلة التي كنت لا أجرؤ بعدُ على توجيها . مكثت أمامها أدفع بطرف عصاي شظايا الخشب وأنا مرتبك بين قحة شديدة وسذاجة مفرطة في الوقت نفسه حتى رفعت بصرها وتفرسته في وجهي فظننت أنها ستنفجر ضاحكة إلا أنها قالت بكل بساطة وربما؛ لأنني كنت أضع قبعة رخيصة أغطي بها شعري الطويل ولم يكن يبدو أن ثمة عملا فعليا يستعجلني :

- هل أنت فنان ؟

فأجبت مبتسما :

للأسف لا ! ولكني أتذوق الشعر رغم ذلك ..

ودون أن أجرؤ على النظر إليها شعرت أن نظرتها تطوقني وأن ما دار بيننا من حديث منافق مبتذل بغيض إلى نفسي وأني أتألم إذ أنقله.. فاستأنفت حديثي قائلا :

- كم هي جميلة هذه الحديقة !

لاح لي أنها لا تريد إلا أن تتحدث ، ولم يكن يحيرها - مثلي - إلا كيفية الدخول في المناقشة ، فقد صرحت بأني لا أستطيع الآن للأسف

أن أتصور ما يمكن أن تصبح عليه الحديقة في فصل الخريف فهي لا تزال بمنأى عن الشتاء وبرده . كذلك لا أستطيع أن أتنبأ بما سيتبقى منها بعد هذا العمل الرهيب الذي ينزله بها الحطابون فصحت قائلا :

- ألا يمكن منعهم ؟

فردت ساخرة وهي ترفع كتفيها عاليا :

- منعهم ؟!

ظننت إنها تريني قبعتها البائسة كشاهد على رقة حالها ، إلا أنها رفعتها لتضعها فوق رأسها مطروحة إلى الوراء كاشفة جبينها ، ثم شرعت في ترتيب قطع القماش الكريب كأنها تتهيأ للانصراف . فانحنيت عند قدميها والتقطت الشريط الأخضر وقدمته لها .

قالت دون أن تتناوله :

- ماذا أصنع به الآن ؟ إنك رأيتني في ثياب الحداد .

عبرت لها فورا عن الحزن الذي شعرت به عندما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجه ووفاة البارون بعدهما . فلما أبدت دهشتها لمعرفتي أهلها أخبرتها إني عشت بينهم اثنى عشر يوما في أكتوبر الماضي.. عقبت في الحال قولها :

- لماذا زعمت منذ قليل أنك لا تعرف أين أنت ؟

- لم أكن أدري كيف أبدأ الحديث معك .

ودون أن أستفيض في الكشف عما في داخلي بدأت أحدثها عن الفضول الشديد الذي أبقاني في الكارفورش يوما بعد يوم أملا في لقائها (لم أحدثها عن تلك الليلة التي تطفلت عليها فيها)، ثم حدثتها عن أسفي لعودتي إلى باريس دون رؤيتها فقالت :

- وما مبعث كل هذه الرغبة في معرفتي ؟

لم تعد تتظاهر بالانصراف ، وكنت قد جذبت حزمة ضخمة من الخشب وضعتها أمامها بالقرب منها وجلست عليها . فلما كان وضعي منخفضا عنها رفعت بصري لأراها وكانت منصرفة بطريقة صبيانية إلى لف شرائط الكريب فلم أعد أحظى بنظراتها . وحدثتها عن صورتها وأبديت قلقي لما يمكن أن تصير إليه هذه الصورة التي كنت مغرما بها ولكنها لم تدر من أمر ذلك شيئا، وأضافت وهي تطلق ضحكة تألمت لجفافها :

- ربما يعثرون عليها عندما يرفعون الأختام، ثم تعرض للبيع مع غيرها وتستطيع أن تحصل عليها مقابل بضعة نقود إذا كان قلبك لا يزال متعلقا بها .

عبرت لها عن أسفي إذا لم تأخذ شعوري نحوها مأخذ الجد . وأوضحت لها أني إذا كنت فاجأتها بالتعبير عنه ، فإنه يشغل بالي منذ فترة طويلة . إلا أنها ظلت جامدة كأنما قررت ألا تسمع بعد ذلك شيئا مني . كان الوقت يمضي سريعا . ألم يكن عندي ما أقطع به

صمتها ؟ كانت الرسالة الملتهبة تنتفض بين أصابعي . وكنت قد فكرت في قصة اختلقها عن علاقات قديمة بين عائلتي وعائلة جونفريفيل بهدف حملها على الكلام . ولكني في تلك اللحظة لم أشعر إلا بسخافة هذه الكذبة وبدأت أروي لها قصة المصادفة الغريبة التي أوقعت هذه الرسالة في يدي . ناولتها الرسالة قائلا :

- آه ! أتوسل إليك يا سيدتي لا تمزقي هذه الرسالة ! أعيديها إليَّ .

كان وجهها قد شحب شحوب الموت وظلت لحظة دون أن تقرأ الرسالة المفتوحة فوق ركبتيها غامت نظراتها ورجفت أهدابها وإذا بها تهمهم قائلة :

- نسيت أن أستعيدها ! كيف نسيتها ؟!

- ربما اعتقدت أنها وصلته أو أنه حضر لأخذها ..

كانت لا تزال منصرفة عني لا تعيرني سمعا وأتيت بحركة لاسترداد الرسالة، ولكنها أساءت تفسير حركتي فصاحت بي قائلة وهي تدفع يدي في خشونة :

- دعني !

ونهضت رغبة في الفرار فجثوت أمامها أستبقيها :

- لا تخافي مني يا سيدتي فأنا كما ترين لا أريد بك سوءا . وعندما عادت إلى الجلوس أو بالأحرى عندما انهارت خائرة القوى توسلت

إليها ألا تسخط على إن كانت المصادفة قد اختارتني لأكون أمينا على سرها رغما عني . وتوسلت إليها أن تبقى على هذه الثقة التي أقسمت ألا أخونها ما حييت . آه ! لماذا لا تحدثني كصديق حميم لا يعرف من أمرها إلا ما تطلعه عليه بنفسها ؟

ربما أقنعتها عبراتي التي ذرفتها أكثر مما أقنعها حديثي وعدت أقول :

- وا أسفاه ! أعلم فظاعة الموت الذي سلبك حبيبك في تلك الليلة .. ولكن كيف بلغك هذا الخبر المشئوم ؟ وماذا صور لك خيالك في تلك الليلة وأنت عاكفة على انتظاره مستعدة للهرب معه ؟ وماذا صنعت عندما وجدت أنه لا يظهر ؟

قالت بصوت حزين :

- طالما أنك تعلم كل شيء فأنت تعلم طبعا أني لم أكن أنتظره بعد أن أخبرت جراسيان .

وفجأة تجلت الحقيقة في أبشع صورها فلم أستطع أن أمسك نفسي عن الصياح :

- ماذا ؟ أنت التي أوعزت بقتله ؟!

وهنا هوت منها الرسالة والسلة على الأرض وتناثر ما كان فيها من أشياء ووضعت جبينها بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء بغير وعي فملت عليها وحاولت أن أتناول يديها بين يدي فصدتني قائلة :

- كلا أنت جاحد قاس !

كانت صيحتي الهوجاء قد أتت على اطمئنانها من ناحيتي فقطبت جبينها وعبست في وجهي، وكنت لا أزال جالسا أمامها وقد عقدت العزم على ألا أفارقها قبل أن تصرح لي بأكثر مما عرفت . أخيرًا هدأ نشيجها فأقنعتها بهدوء أنها استطردت في الكلام بحيث لا تستطيع أن تمسك عنه دون إيذاء . وأنها لو أفضت لي باعتراف صادق ، فلن يقلل ذلك من شأنها في نظري ، وأنه لا يحز في نفسي أكثر من لزومها الصمت. أسندت مرفقيها على ركبتيها وحجبت جبينها بيديها المتشابكتين وقصت :

كانت قد كتبت هذه الرسالة في الليلة السابقة لليلة التي قررت فيها الهروب . كتبتها في غمار لوعة الغرام التي تملكتها في تلك الليلة . وفي الصباح حملتها إلى الدار ووضعتها في ذلك المكان السري الذي كان يعرفه « بلير جونفريفيل » وكانت تعلم أنه سرعان ما سيأتي لأخذها، ولكنها ما أن عادت إلى القصر ، ووجدت نفسها في تلك الحجرة التي كانت تريد أن تغادرها إلى الأبد تملكها ضيق لا يمكن وصفه وخوف من تلك الحرية المجهولة التي طالما تلهفت عليها والخوف من ذلك العاشق الذي كانت لا تزال تتوق إليه والخوف من نفسها ومما كانت تخشى الإقدام عليه . أجل كانت قد اتخذت قرارها، أجل وأبعدت عنها كل ريبة أوشك وارتضت أن تتجرع العار، ولكنها ما أن وجدت أنه ليس هناك ما يقيدها ويحول بينها وبين الباب المفتوح للفرار

ضعفت ولم يطاوعها قلبها، وباتت فكرة الفرار بغيضة إلى نفسها لا تطيقها فأسرعت وأبلغت جراسيان أن البارون جونفرفيل عقد العزم على اختطافها من أهلها هذه الليلة بالتحديد ، وأنه قد يجده وهو يحوم قبل المساء بالقرب من الدار ولابد من منعه من الاقتراب .

عجبت لأنها لم تذهب لتسترد الرسالة بنفسها وتستبدلها بغيرها لصد عشيقها عن مشروعه الجنوني ولكنها كانت لا تتوانى عن التهرب من أسئلتي وأخذت تردد وهي تبكي أنها تعلم تماما أني لا يمكن أن أفهمها وأنها لا تستطيع أن تفسر أفضل من ذلك ولكنها في ذلك الوقت كانت تشعر أنها عاجزة عن صد عشيقها.. عاجزة عن اللحاق به . كان الخوف يشل حركتها ، فأصبح رجوعها إلى الدار أمرا فوق طاقتها ، ثم في تلك الساعة من النهار كان أبواها الرهيبان يراقبانها ولهذا اضطرت للجوء إلى جراسيان .

- هل كان بوسعي أن أقدر أن جراسيان سيأخذ مأخذ الجد ذلك الكلام الذي فلت مني في غمرة هذياني ؟ تصورت .. أنه سيكتفي بإبعاده وانتفضت فزعا عندما سمعت بعد ساعة طلقا ناريا بالقرب من الباب الحديدي إلا أن تفكيري تحول عن الاحتمال الرهيب الذي لم أتصوره، بل على العكس فبعد أن أخبرت جراسيان هدأ فكري وقلبي وشعرت بالابتهاج .. ولكن عندما هبط الليل ودنت الساعة التي كان من المفروض أن تكون موعدًا لفراري وجدتني أنتظر رغما عني . وبدأ الأمل يداعبني ويمتزج بيأس . نوع من الاطمئنان الذي

كنت أعلم تماما أنه كاذب . لم أكن لأستطيع تصور أن أجبن لحظة أو أنهار ساعة زمن يمكن أن يقضى دفعة واحدة على حلمي الطويل فلم أكن قد أفقت بعد من حلمي ، وإذا بي كأنني في حلم أهبط إلى الحديقة أرصد كل صوت وأترصد كل شبح فقد كنت لا أزال أنتظر .. وشرعت تبكي من جديد ثم استطردت في قولها :

- كلا لم أعد أنتظر، بل كنت أحاول خداع نفسي فكنت أشبه بمن تنتظر شفقة بنفسها . كنت أجلس أمام الخضرة فوق أسفل درجات الشرفة وقد يبس القلب ولم أكن أقوى على ذرف دمعة .

وجدتني أفكر في شيء بل لا أدري حتى من أكون ولا أين كنت ولا ما جئت من أجله . غاب القمر الذي كان منذ قليل يغمر العشب بنوره فانتابتني رعشة وتمنيت أن تكون رعشة الموت . طلع النهار ، فإذا بي فريسة مرض خطير ، فاستدعى الطبيب الذي كاشف أمي بأمر حملي .

توقفت لحظة، ثم عادت تقول :

- عرفت الآن ما كنت ترغب في معرفته . لو استكملت قصتي ستجدها قصة امرأة أخرى غير إيزابيل التي طالعتها في الصورة .

بالفعل أصبح من العسير على أن أتعرف على تلك الإنسانة التي سلبت خيالي . صحيح أنها كانت تقطع حديثها من آن لآخر بالأنين والشكوى متحاملة على القدر، وكانت تشكو من الشعر والعاطفة

اللذيْن دائما ما يكونا على خطا في هذا العالم إلا إني كنت أشعر بالأسف، لأني لم أتبين في صوتها الحزين تلك الحرارة اللطيفة التي تصدر عن القلب .. لا آسف إلا عليها ! عجبا ! أو هكذا تصورت الحب ! ..

وإذا بي ألتقط الأشياء التي تناثرت من السلة المنقلبة فوق الأرض. ولم أعد أشعر برغبة في زيادة الاستفسار . ووجدتني لا أكترث فجأة بشخصيتها ولا بحياتها . ومكثت أمامها أشبه بغلام أمام لعبة حطمها ليكشف عن سرها، بل إن الفتنة الجسدية التي كانت لا تزال تتمتع بها لم تحرك مني ساكنا ولا خفق أهدابها المثير الذي كنت أنتفض له منذ قليل أهاجني .. كنا نتحدث عن رقة حالها واحتياجها فسألتها عما تنوى عمله فأجابت :

- سأسعى إلى إعطاء دروس خصوصية في العزف أو الغناء فلدى طريقة جيدة .

- آه ! هل تغنين ؟

- أجل وأعزف .. درست كثيرا في السابق وكنت تلميذة لتاربيلج وأحب الشعر كثيرا .

ولما لم أجد ما أقوله لها أضافت قولها :

- أنا على ثقة من أنك تحفظ بعض الشعر عن ظهر قلب ! ألا تحب أن تسمعني منه شيئا ؟

لكن النفور والتقزز ساعدا على الإجهاز على الحب في داخلي فنهضت لأستأذنها في الانصراف فقالت :

- عجبا ! أتنصرف بهذه السرعة ؟

- للأسف ! أنت مثلي تشعرين أنه من الأفضل أن أنصرف الآن .

تصوري أني كنت بين أهلك في يوم من أيام الخريف الماضي .. وقد جعلتني حرارة الجو في الكارفورش أستسلم للنوم وأرى حلما لم أفيق منه إلا منذ لحظة ! الوداع .

عند طرف الممر ظهر من يعرج فقلت :

- أعتقد أني ألمح كازيمير الذي يجيء للقائي .

- هو قادم فانتظر .

كان الصبي يقترب في وثبات قصيرة وكان يحمل فوق كتفه مجرافا.

- اسمحي لي أن أذهب للقائه فقد يحرج إن وجدني معك .

معذرة .

عجلت بوداعي بطريقة خرقاء فحييتها في أدب وانصرفت .

لم أر إيزابيل دي سان - أوريول بعد ذلك ولم أعلم عنها شيئا، بلى فعندما عدت إلى الكارفورش في الخريف التالي أخبرني جراسيان أنها هربت مع حوذي عشية الحجز على أثاث القصر، بعد أن هجرها مدير الأعمال وأضاف جراسيان كمن يلقى حكمة :

- كما ترى سيد لاكاز ، لم تستطع أن تبقى وحدها .. كان لابد لها من عاشق دوما .

بيعت مكتبة الكارفورش في منتصف الصيف . وعلى الرغم من التعليمات التي أوصيت بها لم أعلم بذلك ، وأعتقد أن صاحب «مكتبة كان » الذي ندب للإشراف على عملية البيع لم يهتم بدعوتي كما لم يهتم بدعوة أي من هواة الكتب الجادين . وكم كانت دهشتي وسخطي عندما علمت فيما بعد أن نسخة التوراة الشهيرة بيعت بسبعين فرنكا لبائع كتب قديمة في البلدة .. وسرعان ماباعها بثلاثمائة فرنك . ولم أعرف المشتري الجديد .

أما عن مخطوطات القرن السابع عشر ، فلم يأت ذكرها حتى في كشف المبيعات واعتبرت أوراقا قديمة .

كنت أريد أن أحضر عملية بيع الأثاث على الأقل فكنت أنوي شراء بعض الأشياء الصغيرة كذكرى من آل فلوش، ولكني أخطرت بعد فوات الأوان .. ولم أتمكن من الوصول إلى « بون ليفيك » إلا عندما عرضت المزارع والضيعة للبيع .

حصل على الكارفورش مقابل ثمن بخس تاجر عقارات يدعى «موزر سميدث» ينوى تحويل الحديقة إلى مرعى بعد أن اشتراها منه أحد الهواة الأمريكيين . لم أدر سبب شرائه لها؛ لأنه لم يعد إلى البلدة وترك القصر والحديقة على حالهما .

ولما كنت قليل الثروة في ذلك الوقت تصورت أني لن أحضر عملية البيع إلا مشاهدا . ولكني في صباح ذلك اليوم كنت قد رأيت كازيمير عندما سمعت المزايدات فتملكني ضيق شديد وأنا أفكر في مأساة هذا الصبي فقررت فجأة أن أؤمن له حياته في المزرعة التي يتمنى جراسيان أن يقيم فيها - هل كنتما تعلمان أني أصبحت مالكا لها؟ فدون أن أقدر ما أنا مقدم عليه وجدتني أرفع المزاد كان هذا جنونا مني ولكن بهجة الصبي التي بعثت الأسى كانت أعظم مفاجأة لي .

ذهبت إلى هذه المزرعة لقضاء عطلة عيد الفصح وعطلة الصيف التالي عند جراسيان، حيث كان يقيم كازيمير . كانت مدام دي سان - أوريول العجوز لا تزال على قيد الحياة . كنا قد حاولنا قدر استطاعتنا أن نترك لها أحسن حجرة . وكانت من فرط تقدم سنها وما مر بها من أحداث قد رجعت إلى عهد الطفولة . ولكنها مع ذلك تعرفت عليَّ ، بل لم تكن قد نسيت اسمي تماما فعندما رأتني جعلت تردد في البداية :

- ما ألطف هذا يا سيد لاكاز .. ما ألطف هذا منك !

فقد كانت تعتقد أني ما جئت إلى البلدة إلا لزيارتها .

قالت معبرة عن اطمئنانها لي ، كما لو كانت توضح أسباب ما آلت إليه من رقة حال ، أو كأنها توضح لنفسها :

- يقومون ببعض الإصلاحات في القصر .. وسيصبح جميلا للغاية.

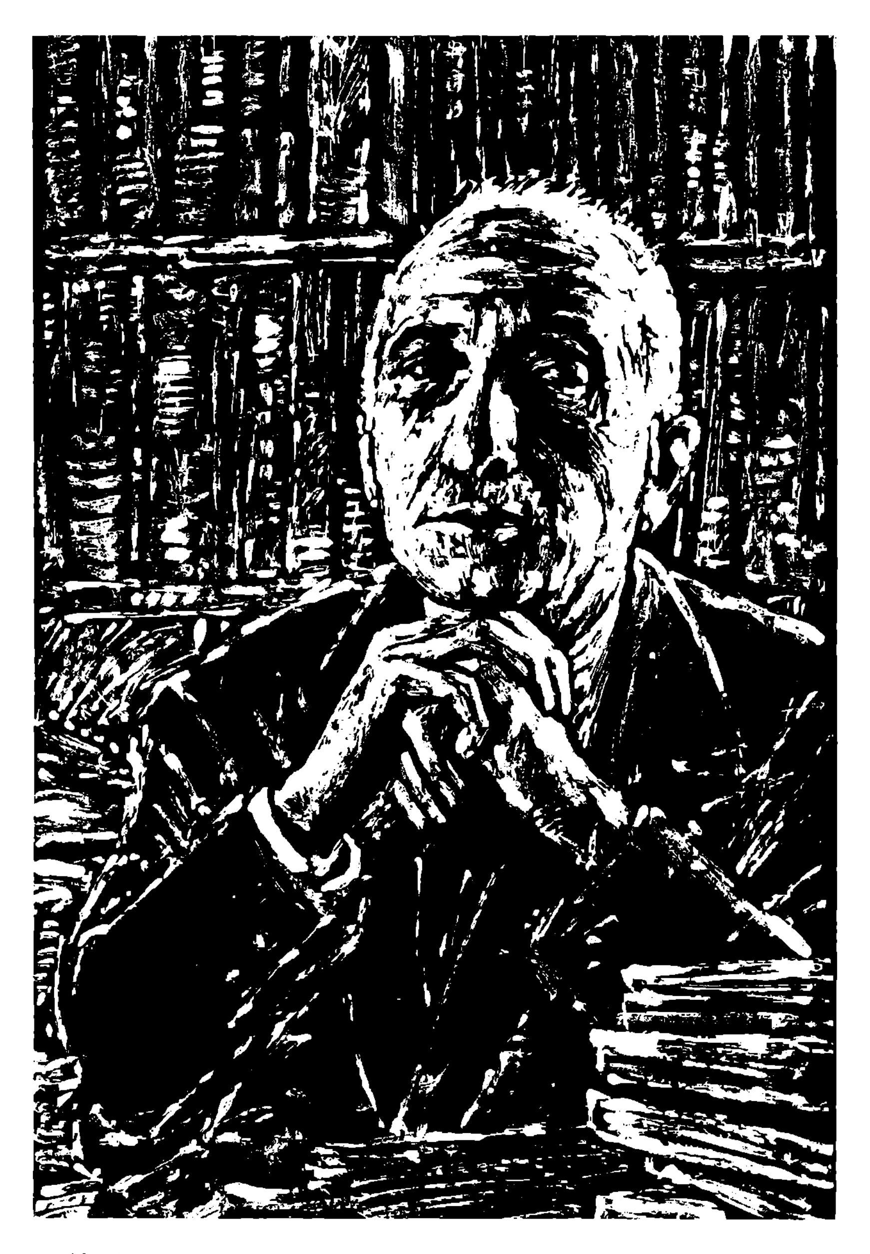
يوم أن عرض الأثاث للبيع كانوا قد أخرجوها إلى شرفة حجرة الاستقبال في مقعدها الكبير ذي المساند .. قدموا لها المحضر على أنه مهندس معماري شهير من باريس بشكل خاص ليشرف على الأعمال التي ستنفذ (كانت تصدق بسهولة كل ما يروقها) ، ثم قام جراسيان وكازيمير وديفلين بنقلها إلى تلك الحجرة التي قضى عليها ألا تفارقها مع أنها ظلت تعيش فيها ثلاثة أعوام أخر .

خلال ذلك الصيف الأول الذي أمضيته في مزرعتي تم تعارفي بآل (ب) .. وتزوجت من ابنتهم الكبرى فيما بعد . ولم تكن مزرعة (-) التي آلت إلينا منذ وفاة أهل زوجتي بمنأى عن الكارفورش وفي كل عام أعود إليها مرتين أو ثلاث مرات فأتحدث مع جراسيان وكازيمير اللذين يقومان بفلاحة أرضها على خير وجه ويسددان لي بانتظام قيمة الإيجار المتواضعة . وعندما تركتكما منذ قليل كنت قد ذهبت إليهما .

كان الليل قد تقدم عندما أنهى جيرار حكايته . إلا أنه قبل أن ينام في تلك الليلة ذاتها كتب مرثية رابعة جاء فيها :

«لما سألتني أن أنعي هذه الضيعة المهجورة حيث الرياح العاتية...».

النهاية ...



■ المؤلف

أندريه جيد

حائز على جائزة نوبل في الأدب 1947م .. ولـد أندريـه جيـد في الثـاني والعشرين من نوفمبر 1865م ، في العاصـمة الفرنـسية عـن أب وصـل إلى كرسي القانون بكلية باريس ، وأم من أسرة ثرية .. تلقى تعليمه عـلى أعـلى مستوى ..

تميز أندريه بالقراءة والتأمل من ناحيـة، وبنزعـة التمـرد والثـورة التـي ظهرت في كل كتاباته من ناحية أخرى..وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الأول « كراسات أندريه فالتر » ، وهو بَعْـدُ في الثامنـة عـشرة مـن عمره .. تلك الكراسات التي جـاءت إلهامًـا مـن أمـه، فـضلًا عـن تـأثره بالأفكار القادمة مـن ألمانيـا وبريطانيـا ..والتـي جعلـت مـن جيـد طـائرًا بجناحين ، فهو المغامر ، وهو العاقـل في الوقـت نفـسه . . يـسعى للمتعـة الذاتية ، و يقدم على التضحية . . هو الذاتي وهو الغيري في الوقت ذاتـه .. ومن ثم كانت أعماله « الأطعمة الأرضية »، و«الشاذ »، و«الباب الـضيق»، و« السيمفونية الريفية » و« المزيفون » ..

ولعل أهم أعمال جيد بعـد ذلـك تتمثـل في «بحـث نرسـيس» 1892م و«رحلة» 1907م و«الباب الضيق» 1909م و«إيزابيل» 1911م ..

ويقول عنه د. نظمي لوقا : «إن قراءة دوستوفسكي وفرويد قد أكسبت جيد قدرة على أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التي تكبتها التربية في أعمق أغوارنا ..» .

وتقديرًا لإحـساسه بالنـاس ، ومحاولـة تمهيـد طريـق الهدايـة والقناعـة والرضى والإيمان أمامهم ، مُنح جـائزة نوبـل العالميـة في الآداب 1947م.. وقد رحل جيد في 1951م عن 86 عاما..



■ المترجم

فتحي العشري

الناقد المسرحي والسينمائي والأدبي

* تخرج في كلية الآداب ، قسم اللغة الفرنسة وآدابها – جامعة القاهرة.
* تولى منصب مدير تحرير جريدة الأهرام القاهرية ، ورئاسة القسم الأدبي وقسم السينما .
* رئيس تحرير مجلات سطور – كوكب الشرق – زينة – عين عربية – سياحة 2000.
* أدار تحرير مجلتي الفيصل وكتابي .
* رئيس تحرير سلاسل : الرواية العالمية – روايات جائزة نوبل ، وحوليات نجيب محفوظ .
* عضو لجنة المسرح بالمجلس الأعلى للثقافة ، وعضو نقابات الصحفيين والسينمائيين والممثلين وعضو اتحاد الكتاب وجمعية كتاب ونقاد السينما، وأمانة مؤتمر الأقاليم ، ومؤتمر المسرح القومي.
* نائب رئيس مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي .
* أعد وقدم عددا من البرامج الإذاعية والتليفزيونية .
* شارك في عدد من المهرجانات الدولية المسرحية والسينمائية والأدبية وفي لجان التحكيم .
* كتب مقدمات لعدد من الروايات والمسرحيات والقصص والدراسات .

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقي	تأليف أندريه جيد؛ ترجمة وتقديم محمود قاسم.
العجوز والبحر	تأليف إرنست هيمنجواي؛ ترجمة وتقديم غبريال صالح.
الأم الكبيرة	تأليف جابرييل جارسيا ماركيز؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.
صحراء الحب	تأليف فرانسوا مورياك؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.
شعب يوليو	تأليف نادين جورديمير؛ ترجمة وتقديم أحمد هريدي.
أمير الذباب	تأليف وليم جولدينج؛ ترجمة وتقديم عبد الحميد فهمي الجمال.
الكنز	تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة وتقديم حسين عيد.
أنطوانيت	تأليف رومان رولان؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.
الغريب	تأليف ألبير كامي؛ ترجمة وتقديم محمد غطاس.
أحلام الناي	تأليف هرمان هسه ؛ ترجمة وتقديم محمد فؤاد عطا الله.
الأم	تأليف جراتسيا دليدا؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.
ولم يقل كلمة	تأليف هاينرش بل؛ ترجمة وتقديم ياسين طه حافظ.
مراعي الفردوس	تأليف جون شتاينبك؛ ترجمة خديجة خطاب.
مغامرات نلز العجيب	تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة شوقي جلال.
رياح الشرق رياح الغرب	تأليف بيرل باك؛ ترجمة غبريال وهبة.
الآلهة عطشى	تأليف أناتول فرانس؛ ترجمة وتقديم مصطفى كامل.
إيزابيل	تأليف أندرية جيد ؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري .

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقي .. أندريه جيد

العجوز والبحر .. إرنست هيمنجواي

الأم الكبيرة ..جابرييل جارسيا ماركيز

صحراء الحب .. فرانسوا مورياك

شعب يوليو .. نادين جورديمر

أمير الذباب .. وليام جولدينج

الكنـــز .. سلمى لاجرلوف

أنطوانيت .. رومان رولان

الغريب ..ألبير كامي

أحلام الناي ..هيرمان هسه

الأم .. جراتسيا ديليدا

ولم يقل كلمة .. هاينرش بل

مراعى الفردوس .. جون شتاينبك

مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف

رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك

الآلهة عطشى .. أناتول فرانس

إيزابيــل .. أندريه جيد

تصميم ورسوم : محمد حجى

الدار المصرية اللبنانية

